رام الله بَيْن المنظور اللّيبراليّ والمنظور الإسلاميّ، (رأيتُ رام الله ورام الله الشّقراء) أنموذجين

تاريخ الإرسال 2020/9/10 تاريخ القبول 2020/11/24

حارث عادل الزيود(*)

الملخّص

تقف هذه الدّراسة على مدينة رام الله في كتابَيْ (رأيتُ رام الله) لمريد البرغوثيّ، و(رام الله الشّقراء) لعبّاد يحيى، لتجلوَ التّحوّلات الّتي طرأت على تلك المدينة، في حِقَبٍ زمانيّةٍ وسياسيّة مختلفة، ولتبيّن المنظورات المتعدّدة الّتي يمكن النّظر إلى مدينة رام الله عن طريقها. وقد كشفَت الدّراسة عن الاختلاف الواسع بين المؤلّفين؛ إذْ كان منطلقُ أحدهما مغايرًا لمُنطلق الآخر، كما بيّنت الدّراسة أنَّ تحوّلات مدينة رام الله، والاختلاف في رؤيتها عند الكاتبين، تجاذبهما، وأثّر فيهما عاملان: النّظرة اللّيبرالية، والمنظور الإسلاميّ، فغدا البونُ في صورة المدينة بعيدًا؛ إثر هذين العاملين.

الكلمات المِفتاحيّة: المدينة، رام الله، مريد، عبّاد.

Ramallah between liberalism and Islam. (I Saw Ramallah) & (Blond Ramallah) as models

Abstract

This study discusses the city of Ramallah in Mureed Al Bargothi's (I Saw Ramallah) and Aabad Yahya's (Blonde Ramallah), and tries to disclose how the city's changed through different political eras .The study reveals two major factors behind these changes; Dreams and Politics. The study also uncovers how unique the two novelists' approaches were. Each adapting his own reasoning resulted in two very different pictures of Ramallah due to the abovementioned factors

Key words: The city, Ramallah, Merid, Abbad..

(*) جامعة النجاح الوطنية– فلسطين.

المقدمة

انشغل الرّوائيّون الفلسطينيّون بالمكان انشغالًا كبيرًا؛ فالمكان يمثّل القضيّة الفلسطينيّة بأجْلى صورها، والمكان هو محور الصّراع بين الفلسطينيّين والآخر، "فلم يكن اهتمام الرّوائيّين الفلسطينيّين بالمكان لمجرّد وعيهم بمنزلته في الرّواية لبنةً أساسيّةً في بنائها المعماريّ والفنيّ، بل لإدراكهم الدّورَ الذّي يضطلع به المكان في تعميق القضايا الّتي يعالجونها، مع التّركيز على علاقة الفلسطينيّ بأمكنته".[1]

لقد تحدَّث الفلسطينيُّ عن الأمكنة، واهتمّ بها اهتمامًا واضحًا، فقد كان المكان هو المحرّك الرّئيس للرّوائيّين في رواياتهم، وقد جعلوه "يسم الأشخاص والأحداث الرّوائيّة في العمق، والمكان يلد السّرد قبل أن تلده الأحداث الرّوائيّة، وبشكل أعمل، وأبعد أثرًا".[2] ويعدُّ المكان، ومن ضمنه المدينةُ، محورًا رئيسًا في الرّواية الفلسطينيّة؛ جرّاءَ ما حلَّ بالفلسطينيّ من فقد الوطن، فحديث الأديب الفلسطينيّ عن المكان هو بحث عن الذّات والوطن، ويختلف أدب الفلسطينيّ المغترب عن وطنه، عن الفلسطينيّ المقيم في فلسطينَ، فالمغترب عادة يتحدّث عن غربته، وعن شوقه لمكانه، وحلمه أن يراه قد نما للأفضل، مستذكرًا هذا المغتربُ ما مضى من الزّمان، أمّا المقيم فإنَّه يعبّر عن الواقع الأليم الّذي يعيشه، ولهذا الاختلاف؛ وقع اختيار الباحث على دراسة فضاء مكانيٍّ، هو رام الله، عند كاتبين فلسطينيّيْنِ، أحدهما مغترب وابنٌ للمدينة، هو مريد البرغوثيّ في كتابه (رأيت رام الله)، والآخرُ مقيمٌ ووافد على المدينة، هو عبّاد يحيى، في روايته (رام الله الشّقراء)؛ للوقوف على المقارنة بين صورة المدينة عند كلٍّ منهما، كونَهما كاتبينِ ينتميان إلى تجربة مستقلّة، وينتميان إلى مرحلة زمانيّة مختلفة، فالعمل الأول كُتبَ بعد اتّفاقيّة أوسلو، يقف فيها صاحبها على رام الله قبل أوسلو وبعدها، والعمل الآخر كُتبَ عام 2013، بعد انتفاضة الأقصى بزمن غير يسيرٍ.

وقد اختار الباحث أن يقتصر الوقوفُ على فضاء رام الله وحدها، دون الفضاءات الأخرى في الرّوايتينِ؛ كونَ الدّراسة مقارنةً لفضاءٍ بين روايتين، والفضاءُ الّذي تنبني منه هذه المقارنة هو فضاء رام الله، في العمل الأول عند شاعر وكاتب عاد إلى رام الله فوجدها قد تغيّرت وتحوّلت، ولم تعد تلك القرية الصغيرة الوادعة، بل صارت مدينة، فكتبَ عن خيبته، وفي العمل الآخر عند روائيٍّ وفد إلى رام الله من قرية من قرى قضاء جنين، وفد إليها مُشبعًا بأيديولجيّة حزبيّة مُناوئة؛ ليرى الفرق بين الفضاء الّذي جاء منه، وهذه المدينة الواسعة، في نظره، والمصبوغة بلونٍ آخر لم يعهده في فضائه، لتخرجَ الدّراسةُ بصورةٍ راصدةٍ لتشكّلات مدينة رام الله، وتغيّراتها، تلك التّشكّلات الّتي كانَتْ بصمات السّياسة جليّةً فيها، خاصّة عند صاحب الرّواية الثّانية.

وبوجهٍ عامٍّ، تحاول هذه الدّراسة طرحَ مجموعة من الإشكالات، هي:

- إلى أيّ مدى يمكن اعتبار المدينة ظاهرةً، يتعذّر فيها فصل الجانب التّخييليّ عن الجانب الواقعيّ؟
- ما أشكال تجلّيات المدينة في روايتي (رأيت رام الله)، و(رام الله الشّقراء)؟
- هل كان حضور مدينة رام الله حضورًا ماديًّا، مقتصرًا على الجوانب الماديّة فقط، أم إنَّها كانت حاضرة بوصفها فضاءً يمكن أن يلامس الجانب النفسيّ للشخصيّات؟
- ما أثر الاحتلال في تحّول صورة رام الله؟
- هل كان للسّلطة الفلسطينيّة انعكاس وتأثير في مدينة رام الله؟

وقد اخترتُ المنهجَ الاجتماعي التأريخي منهجًا في الدّراسة؛ كونَه المنهجَ الملائمَ لتتبُّع التّحوّلات الّتي شهدتها المدينة مثلما تتجلّى في الكتابين: رأيت رام الله، ورام الله الشّقراء، وهذا المنهج قريب المأخذ من تحليل الخطاب.

وينبغي الإشارة إلى أنَّ سرديّة مريد البرغوثيّ تناولتها دراسات كثيرة، من بينها دراسة نهى أبو سديرة الموسومة بـ (الاقتلاع من المكان: دراسة في دلالات المكان وتشكله في مختارات من روايات المنفى العربية، الحبّ في المنفى، ورأيت رام الله، وغضب الأعماق)/ 2004، تركّز فيها الباحثة على فضاءات المنفى، ودراسة زين العابدين العواودة الموسومة بـ (البنية الدّلالية لخطاب السّيرة الرّوائيّة الفلسطينيّة المنجز بعد أوسلو: سرديّة رأيت رام الله، وولدت هناك ولدت هنا، للأديب مريد البرغوثي نموذجًا)/ 2012، ودراسة سيدة أكرم الموسومة بـ (جدليّة الأنا والآخر في رواية رأيت رام الله لمريد البرغوثيّ)/ 2018، وغيرُها، أمَّا رواية عبّاد يحيى، فكلّ ما وقعتُ عليه عنها، فهو مقالات على شبكة الإنترنت.

وينبغي الإشارة، أيضًا، أنَّ هناك سرديّات وأعمالًا تناولت موضوع المدينة تناولًا يقترب من تناول البرغوثيّ، أو يكاد يماثله، ومن ذلك على سبيل المثال كتاب (ظلٌّ آخرُ للمدينة) لمحمود شقير، الّذي تحدّث فيه عن مدينة القدس بعد عودته إليها من النفي بعد ثمانيةَ عشرَ عامًا، وقد بيّن شقير الانقلاب الحادث في القدس رأسًا على عقب، وكذلك السيرة الذّاتية (منازل القلب) لفاروق مواسي، وقد تحدّث فيها عن مدينته التي ولد وعاش فيها، ووصف التّقلبات الحادثة عليها بعد عودته إليها بعد غياب قسريّ دام أكثر من ربع قرن من الزّمان، وقد كان شعوره بعد العودة موزّعًا بين فرحة اللّقاء وصدمة العودة، وكذلك كتاب (رائحة التّمر حنة) لرشاد أبو شاور الذي يصف مدينته بعد العودة إليها عقب التّشريد الطّويل، وقد استعاد في هذه الزّيارة تاريخه وذكرياته وأحلامه من جديد.

وتتكوّن هذه الدّراسة من مقدّمة، ومهاد نظريٍّ يلقي الضّوء في عجالة كَعُجالة الرّاكب، على الرّواية العربيّة، والأعمال الأدبيّة الفلسطينيّة، وصورة المدينة فيها بشكل

عام، ومَبحثيْنِ؛ الأوّلُ يجلّي تحوّلات صورة رام الله عند مريد البرغوثيّ، والثّاني يجلّي تحوّلات تلك المدينة عند عبّاد يحيى، وخاتمة تجملُ ما أتتْ عليه الدّراسة في ثِنيها.

مهادٌ وتأسيس

تعدُّ الرّواية الفنَّ الأدبيَّ الأكثرَ تصويرًا لحياة الإنسان، والوسيلةَ الأنسبَ للتّعبير عن مشكلاته، والأقدر على مواكبة مجريات الحياة، فقد استطاعت أن تستوعب أجناسًا أدبيّةً عديدةً، مما جعلها أكثر انفتاحًا على العالم.

وقد طرأت على المجتمعات العربيّة تحوّلات كثيرةٌ، انتقلت بها نحوَ حياة المدينة، بتعقيداتها وتناقضاتها؛ ذلك أنَّ الفنَّ الروائيَّ يمتلك أدواتٍ تحتوي كلَّ تعقيدات الحياة المعاصرة، فالرّواية لونٌ تعبيريٌّ يبيحُ لنا أنْ نقولَ كلّ شيء، وتحتشد فيها كثافة من الممكنات غير المحدودة، والرّواية المثلى تحاول قول كلّ ما يجري في لحظة واحدة، الأمر الذي لا يتوافر في الألوان الأدبيّة الأخرى. [3]

ولا بدَّ أن يكونَ في الرّواية فضاءٌ يتّحد مع المتكلّم في الرّواية، فضاءٌ يشكّل حاضنًا لكلّ العلاقات التي تجمع بين عناصر الرّواية، ولا يمكنها أن تنهضَ منفكّةً عنه[4].

ومن مكوّنات هذا الفضاء المكانُ الرّوائيُّ الذي تجتمع فيه شبكة من العلاقات التي تجمع بين عناصر الرّواية، والمكان هو العمود الفقريُّ الذّي يربط أجزاء الرّواية ببعضها،[5] "فالشخصيّات تحتاج مكانًا لحركتها، والزّمان يحتاج مكانًا يحلّ فيه، ويسير منه وإليه، والأحداث لا تحدث في الفراغ، وسردها يستحيل إذا تمّ اقتطاعها وعزلها من الأمكنة، فلا شيء يجري ما لم يجدْ ما ينشئ جريانه عليه".[6]

وتتجلّى أهميته على مستوى المدلول؛ إذ يُخضع الإنسانُ العلاقاتِ الإنسانيّةَ لإحداثات المكان، مرتكزًا على اللّغة، لإضفاء الإحداثات المكانية على المنظومات

الذهنية والاجتماعية والسياسية والأخلاقية، ممّا يُسهم في تجسيدها، ويجعلها أكثر قبولًا عند المتلقّي، فالمكان يسهم في خلق المعاني، وقد يحوّله الروائيّ إلى أداة للتّعبير عن موقف الشخصيّة الروائيّة، وعن موقف الرّوائي من العالم في بعض النّصوص، وبذلك يمكنه أن يصبح محدّدًا للمادّة الحكائيّة، ومكوّنًا روائيًّا جوهريًّا. (7)

ومن فضاءات المكان في الرّواية العربيّة المدينةُ، فقد اتّخذت الرّواية العربيّة من المدينة بيئةً لها، وموضوعًا مهمًّا؛ ليتمكّن القارئ من تصوّر المدينة في إطار فنيٍّ شكّله الكاتب بإبداعه الخاصّ، فقد استطاع الروائيُّ رصد كثير من التّناقضات في المدينة، باعتبار المكان هو "هويّةَ العمل الأدبيّ إذا افتقد المكانيّة يفتقد خصوصيّته، وتاليًا أصالته".(8)

والمدينة هي "انتماء حدٍّ معيّنٍ من السّكان إلى موقع جغرافيٍّ متميّزٍ، يتفاعلون على ظاهرة اجتماعيّة متعدّدة الوظائف، قوامها إدارةٌ وطبقات من السّكان يتوزّعون وَفق صفقات اقتصاديّة وثقافيّة في إطار قانونيّ ينظّم العلاقاتِ والأفعالَ"،(9) كما أنَّ المدينة تجمعات سكانيّة كبيرة، وغير متجانسة تعيش على أرض محدودة نسبيًّا،(10) والمدن تتمايز في ما بينها، تبعًا لعواملَ أدَّت إلى تكوينها وتطوّرها، فهناك المدن التّجارية، والدّينية، والصّناعية، والتأريخية، كما أنَّ هناك مدنًا أخذت أهميّتها؛ كونَها مصدر القرارات السّياسيّة. (11)

المدينة ليست رقعة جغرافية فقط، بل إنّها "طريقة النّاس في النّظر إلى الأشياء، وطريقة كلامهم، المدينة هي الأحلام والخيبات الّتي ملأت عقولَ النّاس وقلوبَهم"،(12) والمدينة لا تقتصر على الحياة الماديّة من عمرانٍ، وشوارعَ، وخدمات، بل هي اتّجاه عقليٌّ، قوامه العادات والتّقاليد.(13)

إنَّ صورة المدينة هي إحدى تجليات رؤية الرّوائيّ إلى المكان، هذه الرّؤية الّتي يفرزها الواقع المعيشيّ، ومن هنا يكون البحث عن صورة المدينة في الرّواية؛ للكشف عن إبداع النّصّ وتأريخه الثّقافيّ. (14)

ولمّا كانت الرّواية تقوم على تعدّد الشخصيّات وتنوّع الأحداث، فإنّ "المدينة قامت دائمًا على التّنوع، بحيث كانتْ، ولا تزال، أشبهَ بوعاء ضخْمٍ فضفاضٍ، لطبقات اجتماعيّة عدّة، ولأجناس وديانات شتّى، وثقافات مختلفة، ولأشكال متباينة".(15)

وقد تكون الرّواية العربيّة جزءًا من التّأثيرات الثقافيّة للمدينة الأوروبيّة على المدينة العربيّة، كما أنَّ الرّواية العربيّة تطوّرت بتطوّر الأوضاع السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة في المدينة، وصارت تتميّز على أنَّها فنُّ المدينة، وأنَّها تتطلّبُ كاتبًا معايشًا للمدينة، وواعيًا لعلاقاتها وتناقضاتها. (16)

وقد مثّلت المدينة – موضوعُ التّقرير – فضاءً أساسًا لكثير من الرّوائيّين العرب، وكانت لهم مواقفُ متباينةٌ منْها، فبعض هذه المواقف يمثّلُ الرّفض، والعِداءَ، والكراهيةَ غير المحدودة للمدينة، وبعض هذه المواقف يتلخّص في أنَّ المدينة عالم ضاجٌّ ومزدحمٌ بالنّماذج الإنسانيّة والحياة والمفارقات، يستطيع الإنسان أن يجد فيه عوالمَ لا حدَّ لها من التّجارب، وبذلك يستطيع أن يدين الحياة في المدينة عن طريق انطباعاته لعوالمها المختلفة. (17)

والسّؤال: هل الكتابة عن المدينة التّي شغلت بال الرّوائيّين تأريخٌ لتلك المدينة، ووثيقة عنها؟ يرى بعض الدّارسين أنَّ ما يُكتب عن المدينة في الرّواية هو من قبيل المتخيَّل، الّذي يُصاغ برؤاهم وطرائقهم في السّرد، الّتي يعدلون بها عن جِهاتها الأصيلة، ويتصرّفون في أشكالها بناءً على تصوّراتهم، فما يكتبه الرّوائيُّ هو فكرُه عن المدينة، بحسب تصوّره لها، وليس المدينةَ نفسَها، وما يصل إلى المتلقّي هو فضاءٌ لُغويٌّ، يعادُ

فيه تكوين أجزاء المدينة، وتكوين تصوّر عنها، يرتبط بتصوّر الرّوائيّ، ورؤيته لها وللعالم. [18]

ويرى بعضٌ آخرُ أنَّ الرّواية جنس أدبيٌّ يلجأ إليه الرّوائيُّ لتصوير الواقع المَعيش، وللتّعبير عن تجاربَ تهمُّ الواقع العربيَّ، فالرّواية تشيرُ إلى أنَّ الرّوائيّين لهم حكاياتُهم، وأنَّ عليهم أن يقولوها، ولئن كانت الرواية في الأصل تُستمدُّ من الواقع، فلقد كتب كثيرون عن قضايا في مجتمعاتهم، لم يجدوا لها حلًّا إلا بطرحها على شكل رواية؛ أملًا أنْ تثير جدلًا حول القضيّة الأصيلة، وتوجّه الأنظار إليها. [19] ولعلّ في التّحوّلات الّتي تجلّيها الروايتان الآتيتان في مدينة رام الله ما يبيّن سيطرة أحد الرأيين على الآخر.

المبحث الأول

تحوّلات مدينة رام الله في كتاب (رأيت رام الله)

عتبة عنوان كتاب (رأيتُ رام الله)

كتب مريد البرغوثي روايته بعد زيارته لمدينة رام الله، فقد رأى رام الله حقيقةً، لكنَّ العنوان لا ينبئ إذا كانت رؤيته لرام الله قد راقت له، أم إنّه قد أصيب بالخيبة، وقد يكون المقصود بالرؤية هو رؤيةَ العين، فقد نجح أخيرًا في رؤية رام الله الّتي يحلم بها، ويرسم لها صورة جميلة في مخيّلته، وهو في منفاه وغربته، وقد ترتدّ الرؤية إلى الرؤية القلبيّة، ليجد رام الله الّتي يحلم بها قد تبدّلتْ وتغيّرت، فتتولّد الصّدمة بين المتخيّل والحقيقة، كلُّ هذه الضّبابات، وكلُّ هذه الأفكار، يجيب عنها جلوُ صورة رام الله في كتاب مريد، ورصد علاقة الشّاعر بها، وردّة فعله تجاهها.

رام الله في المنفى، وقبل العودة:

رام الله الرّحبةُ المتسامحة المتعدّدة الثّقافات:

يقوم وصف رام الله عند البرغوثي على المزاوجة بين الحاضر والاسترجاع، بين حاضرٍ يشاهده ويعيشه الآن، واسترجاعٍ لماضٍ يربو على ثلاثين عامًا، فرام الله في الماضي تمثّل التّراث والثّقافة، وهي "مدينة متعددة الثقافات، متعددة الأوجه، لم تكن مدينة ذكوريّة ولا متجهّمة، سبّاقة إلى اللّحاق بكلّ ترفٍ جديد"،[20] ، وفي رام الله هذه، بدأ محاولة الشّعر، وفيها نشأ اهتمامه بالفنّ السينمائيّ،[21] كانت رام الله مدينة منفتحة نحو العلاقة بين الجنسين في براءة ونقاء، يقول: "لم تلاحقنا عيون فضولية أبدًا، ونحن نذهب إلى مقهى وحديقة (رُكَب)، شبَّانًا وصبايا؛ لتناول الشوكالامو والبيتش ملبا والميلك شيك والبنانا سبليت في ظلال أشجاره الجميلة وعلى أرضيّته المفروشة بالحصى الأبيض".[22]

رام الله الّتي كانت في ذلك العهد مهدًا للحضارة، والثّقافة، ثمَّ كانت مكانًا حاضنًا للانفتاح النّظيف بين مجتمع الشباب والصّبايا، كان لا بُدَّ أن تكون فضاءً رحبًا لاستيعاب كلّ الدّيانات، فقد عاش فيها المسلم مع المسيحيّ جنبًا إلى جنب، يشارك هذا ذاك أفراحه ومناسباته، وتُقام الاحتفالات المختلفة المتعلّقة بالإسلام والمسيحيّة معًا في هذه المدينة، يقول البرغوثي: "فيها تعوّدت على الاحتفال بالكريسماس ورأس السّنة"،[23] ويقول: "من الأمور الجميلة في رام الله أنّها مجتمع رحب شفّاف، نسيجه مسيحيّ إسلاميّ، تتمازج فيه طقوس أصحاب الدّيانتين، بشكل تلقائيّ بديع، شوارعها ومؤسساتها كلُّها تتزّين بزينة الكريسماس، ورأس السّنة، ورمضان، وعيد الفطر، والفصح، والأضحى، رام الله لا تعرف أسئلة المذاهب والطّوائف".[24] فالفلسطينيُّ قادرٌ على الاحتواء، والعيشِ بأمنٍ وسلامٍ مع الأديان الأخرى، شريطةَ ألّا يكون صاحب الدّين الآخر محتلًّا.

رام الله، الّتي يعرفها البرغوثي، والّتي في مخيّلته وأحلامه، لم تكن تعرف العنصريّة، ولم تفرّق بين أهلها، والوافدين إليها، يتجلّى هذا التمثّل في شخصيّة بائع الجرائد، أبي الحبايب الّذي لا يعلم أحدٌ من أين جاء، ولا من هم أهله، فالجميع يعرفه ولا يعرفه، ولم يغادر رام الله في حياته إلى أيّ مكان آخرَ، حتّى أصابته الشظيّة، فوقع شهيدًا على أرض رام الله،[25] فأهل رام الله تعاملوا مع هذا الشخص كأنّه منها، فلم يتساءلوا عن مكانه، فرام الله هي مكانه.

ويتّصل بهذا التّمثّلِ، رحابةِ رام الله، ولو بشيء بسيط، بوصفها مدينةً، المساواةُ بين الجنسين في إتاحة الفرصة للتعلّم، فهنا تبرز رام الله الازدهارُ العلميُّ، وهو من التّمثّلات الجميلة في رام الله، "في ذلك العام وصل إلى القرية مدير مدرسة (الفرندز) للبنات، في رام الله، وقرّر أن يقدّم منحة دراسيّةً للطّالبتين المتفوّقتين في الصفّ الرابع الابتدائيّ؛ لإكمال دراستهنَّ حتّى الثّانويّة العامّة في مدرسته في رام الله، وقال: إنّهما ستقيمان في القسم الداخليّ، أي: في سكن الطّالبات، وستقدّم لهما المدرسة كلَّ الرّعاية، وكلَّ المصاريف اللّازمة".[26]

رام الله المساندة للعروبة

رام الله، كغيرها من المدن العربيّة، كانت تقف مساندةً لأشقّائها العرب، وتعدّ قضاياهم جزءًا من قضيّتها، وتتألّم لآلام العرب، فقد عرفت المظاهرات التي تُقام هنا وهناك، إعلانًا للأخوّة بينها وبين شقيقاتها المدنِ العربيّة، يقول: " في رام الله عرفت المظاهرات للمرّة الأولى في حياتي، تظاهرنا ضدَّ حلف بغدادَ، وتظاهر أهل القدس ونابلس وباقي المدن. تظاهرنا من أجل طرد جلوب باشا وتعريب الجيش الأردنيّ، ورقصنا طربًا عندما تمَّ ذلك بالفعل؛ نتيجة لتطوّرات سياسيّة لاحقةٍ. تابعنا صراعات الأحزاب: الشيوعيّ، والبعث، والإخوان المسلمين، ...، في رام الله طربنا لقرار جمال

عبد الناصر تأميم قناة السّويس، وتابعنا أخبار بورسعيد وصمودها، في رام الله رقصنا للوَحدة بين سوريا ومصر، وإعلان الجمهورية العربية المتّحدة، وفيها بكينا يوم إعلان الانفصال. فيها دغدغتنا أحلام القوّة بصواريخ القاهرة، وفيها سمعنا لأوّل مرّة بالقرارات الاشتراكيّة الصّادرة في مصر".[27]

رام الله المقاوِمة

شكّلت المدينة الفلسطينيّة فضاءً مقاومًا، ومحفّزًا للنّضال والمقاومة، وسُجِّلت فيها بطولات تُروى للأجيال القادمة، ومآثر حفرت عميقًا في تاريخ النّضال والمقاومة. [28]

يرسم البرغوثي لوحةً تضجُّ بالتّفاصيل الإنسانيّة اليوميّة، في رام الله، وبقيّة الوطن، ويوثّقها توثيقًا معاصرًا، مازجًا السّياسة بالاقتصاد بالحياة الاجتماعيّة بالمعاناة الشخصيّة، ويتحدّث عن ناس رام الله، وقدرتهم على مقاومة الاحتلال وظروفهم الصّعبة، وأوّل المقاومين هنَّ النّساء؛ فهذه والدته لا تخضع للاحتلال وعراقيله الّتي يضعها، بل ظلّت تكافح لتتجاوزَ كلَّ هذه الصعوبات، فتقف تحت الشّمس طول النّهار لتستخرج تصريحًا جديدًا في كلّ مرة لترى أبناءَها، في الدّوحة، أو القاهرة، أو بيروت، أو باريس، أو بودابست، أو أخاها في الكويت، أو تلتقي بالجميع في فندق بعمان إذا تمكّن الجميع من دخولها".[29]

وقد كانت النّساء يفتحْن بيوتهنّ لإيواء الثُّوّار، "يتحدّثون أيضًا عن تلك السّيدة الّتي لجأ إلى منزلها أحد المُطارَدين الفلسطينيّينَ، فخبَّأتْه في منزلها سبعَ سنوات دون أنْ يدري به أحدٌ".[30]

وتتمثّل رام الله المقاوِمة في شخص منيف، أخي مريدٍ، الّذي ظلَّ يحلم بالعودة إلى رام الله، وكان مؤمنًا بقدرة الفلسطينيّين على صنع غدٍ أجملَ، يسرد مريد عن أخيه: "في هذه السّاحة المتهدّمة الّتي وضع لها الدّراسات والخطط لترميمها وإعادة إعمارها، أراد

أن يحوّلها إلى ساحة للعروض الفنيّة الجماعيّة، ومراسمَ للرّسّامين، وأن يقيم فيها حضانة للأطفال، ومعهدًا لتعليم الفنون الزّراعيّة، وخطّط لاستعادة أقواسها وقبابها وبوّاباتها الأثريّة إلى بهائها الأوّل".[31]

ومن الأمور الّتي تبرز رامَ الله المقاوِمةَ، استشهادُ الشّباب في عنفوان شبابهم، "فلؤيٌّ تلقّى رصاصهم في مدخل القرية، كنّا قرأنا له الفاتحة عندما مررْنا بجوار الشّاهدة الإسمنتيّة المقاومة في موضع دمه، رشق حجرًا، رشقوه بالرّصاص"،[32] و"كان رفع علم فلسطينيّ صغير على سطوح مدرسة أو بيت، أو حتّى على أسلاك الكهرباء، يكلّف الشّاب حياته، كان جيش رابين يطلق النّار، ويقتل من يحاول رفع علم واحد".[33]

لقد كانَتْ رام الله، كلُّها، مقاوِمةً، يشترك في ذلك كلّ الشّرائح والأطياف، فالأطبّاء لم يتخلّوا عن دورهم في هذه المقاومة، فقد تحدّث البرغوثيّ عن "الجراحات السّريّة الّتي يجريها الأطبّاء المتطوّعون لمُصابي الانتفاضة حتّى لا يُعْتَقلوا من داخل المُستشفيات".[34]

ولم يكن رجال رام الله، وشبابها، ونساؤها، فقط هم المقاومين، بل برزت رام الله مقاوِمةً بطبيعتها، وخُضرتِها، "ربيعُها المعاند لا يريد أن يسلم نفسه لصيفها المتردّد الخجول في الموعد المألوف، الرّبيع يزاحم بكتفيه، بألوانه، بشهقة البرْد والنّدى في هوائه، بأخضره الّذي عامدًا متعمّدًا لم يكتمل بعدُ، ولم يصبح غامقًا كما يطالبه الصّيف".[35]

رام الله النّظيفة الدّائمة الخضرة

من تمثّلات رام الله الّتي يعرفها البرغوثيّ، والمتخيّلة في ذاكرته على امتداد ثلاثة عقود من الزّمان، هي رام الله اليانعة النّظيفة، "رام الله كانت شديدة النّظافة في شوارعها، ومطاعمها، ومقاهيها، ومنتزهاتها، وكذلك مدينة البيرة، المدينة التّوأم لرام الله".[36] ويقول

مشيرًا إلى الخضرة الّتي كانت سمةً لرام الله قبل الاحتلال: "لكنَّ الخُضرة شحَّتْ؛ لأنَّ إسرائيل تسرق المياه منذ ال 67، ورغم ذلك، الخضرةُ تقاوم".[37]

رام الله الطّبيعة، والبراءة

للمكان رنينٌ قويٌّ في أُذُن ذلك الإنسان الّذي نشأ فيه، ولعلَّ أوَّل ما يمثّل له المكانُ هو تلك الطّبيعة النّقيّة، الّتي تتماهى فيها الألوان والأشجار، تلك الطّبيعة الّتي تدعوه إلى التّأمّل، وتجعله يغنّي أحلى الألحان، وقد مثّلتْ رام الله هذه الطّبيعةَ في سرديّة مريد البرغوثيّ، "فرام الله السّرو والصّنوبر، أراجيحُ المهابط والمصاعد الجبليّة، اخضرارها الّذي يتحدّث بعشرين لغةً من لغات الجَمال، مدارسُنا الأولى حيث يرى كلُّ طفلٍ منّا أنَّ الأطفال الآخرين أكبر سنًّا وأكثر قوّةً، دار المعلّمات، الهاشميّة، الفرندز، رام الله الثّانويّة، نظراتنا الآثمة على أسراب بنات الإعداديّة اللّواتي يمرجحن سلّة الوثوق باليمنى، وسلّة الارتباك باليسرى، ويشلفن عقولنا حين ينظرْن إلينا، وهنَّ لا ينظرن إليْنا، مقاهينا الصّغيرة، المنارة".[38]

ومن مكمّلات فضاء رام الله الجميل، فضاء طبيعتها ونقائها، فضاءُ قرية دير غسّانةَ، وهو فضاء يمتلئ بالألوان والمغامرات الطّفوليّة البريئة، فضاءٌ تتراءى فيه القريةُ عالَمًا من الحياة، فالرّيف يضفي على الأشياء شاعريّةً مُحبّبةً، ويجعل من سلال البصل والأثواب الفلاحيّة قصائدَ رومانسيّةً تمجّد حبَّ الوطن،[39] يقول البرغوثي: "فشوارعها ترابيّة، سناسلها الضّيقة، ومقبرتها المحاطة بالصَّبار، الّذي لا تكفُّ ألواحه الشّائكة عن التّناسل، حتّى وهي تجاور الموت والموتى، وجامعها الّذي لا مئذنة له، بمضافتها في صدر السّاحة، بأقواسها، وقبابها".[40]

دير غسانة ورام الله تمثّلان الطّبيعة والحياة، والهواء النّقيّ بكلّ أبعادها، يقول البرغوثي: "كان الهواء القادم من التّلال والبيادر المحصودة، يدخل مباشرة إلى الرّئتين، ويجعل قميصي الصيفيَّ الأبيضَ يصفّقُ ويموجُ".(41)

دير غسّانة، ورام الله الّتي صرّح البرغوثي في غير موضع أنَّها قرية كبيرة، "لا تُعرَّف ببيوتها، بل بما حولها، الحقول، عيون الماء، الكهوف الصّخريّةُ، الشّعاب، والجبال، والقصص المتوارثة الّتي تتغيّر وتتبدّل من جيل إلى جيل، لكنَّها، عجبًا، ثابتةٌ كالكتاب".(42)

رام الله: العلاقات الرّوحيّة، والألفة بين النّاس

سبق الحديث أنَّ رام الله تمثّل الطّبيعة الجميلة النّظيفة، وتنسحب هذه الطّبيعة الجميلة على علاقات النّاس في رام الله، وتؤثّر فيها، فرام الله تمثّل الألفة والوئام بين النّاس، والجميع فيها يعرف الجميع، " رام الله الموزّعة على هذه الرّبوات والتّلال الخضراء لها نكهة قرية، اتّصالها المباشر بالبيرة قد يعطي انطباعًا بأنّهما يشكّلان مدينةً، لكنَّ جوَّ الحياة في رام الله والبيرة معًا يظلُّ جوًّا ريفيًّا، علاقات النّاس ببعضهم هنا هي علاقات الرّيف، العائلات تعرف بعضها فردًا فردًا، معظم المارّة في طرقاتها ينادون على بعضهم بالأسماء، بعد أن تجمَّع فيها عدد كبير من العائدين من الشّتات مع السّلطة الفلسطينيّة الجديدة، بدأت بالتّدريج تتّخذ لها صفةً من صفات المدن".(43)

تلكم كانت الصّور الّتي تغلّف رام الله الّتي عرفها الشّاعر، ورام الله الّتي تخيّلها في منفاه، وحَلُمَ بها على مدى ثلاثين عامًا من الغربة والقهر والمآسي، فهل وجد البرغوثيّ هذه الصّور في انتظاره عندما قدم إلى رام الله، لتحتضنه، ويحتضنها؟ أم لعلَّ في عنونته لروايته (رأيت رام الله)، ما ينسخ هذه الصّورَ والتّمثّلاتِ، ويجعله يُصاب بالخيبة؟ هذا ما ستكشف عنه الأسطر اللّاحقة.

رام الله بعد العودة

رام الله الجميلة المتطوّرة في بنيانها:

لعلَّ أوّل تمثُّل لمدينة رام الله عند البرغوثي هو التفاته لتغيّر شكلها الخارجيّ، وتطوّر بنائها، كيف لا، وهو الغائب عنها ثلاثين عامًا؟ فمنذ الصّباح الأوّل في رام الله، يسأل مريد أبا حازم: "شو هالبيوت الأنيقة يا (أبو حازم)؟". [44]

ومن معالم التطوّر في مدينة رام الله، مدرسة بير زيت القديمة، التّي أصبحت من الجامعات التّي لها مكانتها العلميّة المعترف بها،[45] وقد وصف التطوّر العمرانيَّ في الجامعة، فقال: "في جولتي في الجامعة لمشاهدة حرمها وكليّاتها ومبانيها الحجريّة البيضاء ومدرجاتها، وجدتُني أقف على مدخل كليّة العلوم"،[46] فالتطوّر في المدينة كان على الصّعيد الشكليّ المتمثّل بتطوّر العمران، وعلى الصّعيد الروحيّ المتمثّل بالتّطور العلميّ، وارتقاء المدرسة إلى جامعة، يؤمُّها كلُّ أفراد الوطن.

هذا التغيّر في رام الله كان تغيّرًا إيجابيًّا، والتطّور سنّة الحياة، وما أجمل ذلك التطوّر عندما يكون نحو الأفضل! فالهندسة العمرانيّة البديعة المفضية إلى تشكيل طُرُزٍ وأنماط جميلة وجديدة من العمران تضفي على النّفس والعين إعجابًا وارتياحًا، وتشعرُ الفرد والمجتمع بالقدرة على التقدّم والتميز، ما لم تكن هذه المباني متنافرة، وتبعث على الشعور بالغربة والاغتراب،[47] والارتقاءُ بالمدرسة إلى جامعة ينبئ عن الاهتمام بالعلم وتطويره وتنميقه، والوصول به إلى درجات أعلى وأسمى.

رام الله: الحداثة الملغية للأصالة:

في الصّورة السّابقة تمثّلٌ إيجابيٌّ لمدينة رام الله، ولكن، هل رأى فيها البرغوثي المدينة مكتملة الإيجابيّة والخير؟ أم حمل ذلك التمثّل الإيجابيُّ في باطنه، وأخفى تحت أجنحته تمثّلًا سلبيًّا للمدينة؟ نعم، تغيّرت رام الله، وزحفت نحو الحداثة، لكنّها حداثة

ألغت الأصالة، وطغت على الطّبيعة، وحلّتْ محلَّ الخضرة اليانعة، "الأصدقاء منزعجون من انتشار العمارات الإسمنتية الشّاهقة في كلِّ مكان".[48] بعد أن كانت رام الله تعرّف بطبيعتها، وكانت "بالنّسبة لأهلها هي تلك البيوت المسقوفة بالقرميد المشمشيّ اللّون، والحدائق المحيطة بها، والمنتزهات ذات النّوافير، وشارع الإذاعة أو شارع العُشّاق كما كنّا نسمّيه، بأشجاره الباذخة على الجانبين، والمطلّ على تلال خضراءَ تنتهي في السّاحل الفلسطينيّ الّذي يمكن مشاهدة أضوائه في اللّيالي الصّافية"،[49] بعد أن كانت كذلك، طغت المادّة على الأصالة، فمنتزه نعّوم "راح، قامت في مكانه عمارة عالية، ومحلّات تجاريّة جديدة".[50]

وتغيّرت المعالم المألوفة في رام الله، "فالمنارة أُزيلت من أجل تخطيط المرور في وسط المدينة، واستبدلوا بها الإشارات الضّوئيّة".[51]

لقد أحبَّ البرغوثيّ لمدينته أن تتطوّر، وتزيّن الزّخرفة العمرانيّة معالمها، لكنْ ليس على حساب الطّبيعة والخضرة، والمعالم الثّقافية، والأمكنة الّتي تشهد للمدينة بأصالتها.

رام الله: تغيّر العلاقات، وانعدامها:

كانت رام الله، قبل ثلاثين عامًا، في علاقاتها، كما مَرَّ، قريبة الشّبه بالرّيف، الجميعُ يعرف الجميعَ، والعائلات تعرف بعضها، ويتزاورون، تغلّفهم حميميّة العلاقة، والأسرة كانت محاطة بسوار متين من الألفة والتّماسك، إذا جلسوا على مائدة الطّعام، يتفقّد بعضهم بعضًا، من الغائب؟ وفيمَ غاب؟[52] وإذا كان جزّار الحارة يريد ذبح خروف، يسألُ من يريدُ الزّند؟ ومن يريد الفخذ؟ ومن يريد كذا وكذا؟ ويذبحها بعد ذلك، ويصبر على من لا يملك ثمن الشّراء،[53] لكنْ "بعد أن تجمّع فيها عدد كبير من العائدين من الشّتات مع السّلطة الفلسطينيّة الجديدة، بدأت بالتّدريج تتّخذُ لها صفةً من صفات المدن، الّتي هي بطبيعتها ملتقى للغرباء"،[54] فهذه الصّورة الجديدة لرام الله، الّتي باعدت بين

النّاس، وجعلتهم كالغرباء، هي من إفرازات السّلطة الجديدة، الّتي تمثّلها رام الله نفسُها؛ كونَها العاصمةَ السّياسيّةَ لها.

في رام الله، تبدّلت العلاقات، من علاقاتٍ تغشاها المحبّة والمودّة والمزاورة، إلى علاقاتٍ ماديّةٍ، يحكمها العمل فقط، إذا ما انتهت ساعات العمل، انتهت العلاقة، فهذه زميلة فدوى الّتي تعمل معها في جمعيّة إنعاش الأسرة، لا تعرف موقع بيتها،[55] ولعلّ من الطّريف حقًّا أن يكون عملهنَّ في إنعاش الأسرة، في الوقت الّذي تنعدم فيه الأسرويّة بين أعضاء جمعيّة هذا الإنعاش.

ومن الطّريف أن تكون كلمة أخ لا تعني إلّا انعدام الأخوّة والعلاقات، يناديه أحدهم في بلده ومكانه الّذي كان قد عهد فيه الأخوّة: "تعال هون يا أخ"،[56] فيتجلّى له هذا القول بانعدام الأخوة، فيقول: "ليس هناك ما هو موحِش للمرء أكثر من أن ينادَى عليه بهذا النّداء، (يا أخ)، (يا أخ) هي، بالتّحديد، العبارة الّتي تلغي الأخوّة".[57]

رام الله السّيادة المسلوبة:

عاد البرغوثيّ إلى مدينته الحبيبة رام الله، بعد دخول السّلطة الفلسطينيّة، فقد أصبح للمكان هويّة وسيادة عربيّة فلسطينيّة خالصة، وقد قَدِم إلى رام الله، وهو **يحلم**، أو يتراءى له أنَّه سيتحسّسُ هذه السّيادة، في كلِّ بقعة من أرض الوطن، وفي كلِّ حارة من حارات رام الله، وفي معاملاته الرّسميّة، بدا له أنَّه سيلمس هذه السّيادة في وطنه، وبين أبناء مدينته، ولكنْ ما إنْ استيقظ في صباح اليوم الأوّل في رام الله، ومن على شرفة بيت صديقه أبي حازم، حتّى تبدَّتْ له مستوطنة تتربّع على عرش الجبل العالي المطلِّ على مدينتي رام الله والبيرة،[58] في مشهد تبدو فيه سيادةُ رام الله العاصمة، سيادةً منقوصةً، سيادةً تعلوها سيادةٌ أعلى، هي السيادة الحقيقيّة، وليست هذه المستوطنة الوحيدة، بل رام الله كلّها مُحاطة بالمستوطنات، الّتي تذكّرها بسلب سيادتها، "الطّريق بين دير غسّانةَ

ورام الله محاط بالمستوطنات الّتي توضحها أضواؤها ليلًا، فتبدو أحجامها الحقيقيّة حتّى للعين المستعجلة، وأكبرها مستوطنة بيت إيل على مشارف رام الله، وهي نهاية المنطقة (أ) الخاصّة بالإشراف الفلسطينيّ...كلّ الطّريق واقع تحت تصنيف (ب) الّذي يعني الإشراف الفلسطينيّ/ الإسرائيليّ المشترك، أي أنَّ السّلطة الفعليّة للجنديّ الإسرائيليّ".(59) فالسّيادة الإسرائيليّة حاضرة بقوة حتى في المناطق الّتي تشرف عليها رام الله، العاصمة السّياسيّة.

وقع البرغوثيّ أسيرًا لخيبة الأمل في هذه السّيادة المتخيّلة عنده، وقد سبق صورة المستوطنة السّالبة للسّيادة صورةُ التّفتيش والتّحقيق والإذلال على الجسر، ولكنَّ الجسر كان مرحلة فاصلة بين حدودنا وحدودهم، أمّا في رام الله العاصمة، فالأمر مختلف، ومشهد سلب السّيادة يتجلّى في أبشع معانيه.

في رام الله، كلُّ شيء يشعره بسلب السّيادة، وتربّع الجانب الإسرائيليّ على عرش هذه السّيادة، لم يشعر أنّه في بلده، وفي مدينته الّتي تفننَ في رسم صورة بديعة لها، ورواها للآخرين، في رام الله، تذكّر البلدان الّتي تنقّل إليها، وهو يرى سيادة الآخرين عليها، "ما الجديد هنا؟ ما زال الآخرون هم الأسيادَ على المكان، هم يمنحونك التّصريح، هم يدقّقون أوراقك، هم يفتحون لك الملفّات، هم يجعلونك تنتظر، هل أنا متعطّشٌ لحدودي الخاصّة؟ أنا أكره الحدودَ، حدود الجسد، وحدود الكتابة، وحدود السّلوك، وحدود الدّول، هل أريد حقًّا حدودًا لفلسطين؟ وهل بالضّرورة ستكون حدودًا أفضل؟".(60)

سيادة الآخر في رام الله تتبدّى في كلّ شيء، حتّى إنَّ هذا الآخر يتدخّل في طريقة موتك، "الاحتلال يمنعك من تدبّر أمورك على طريقتك، إنّه يتدخّل في الحياة كلّها، وفي الموت كلّه، يتدخّل في السّهر والشّوق والغضب والشّهوة والمشي في الطّرقات،

يتدخّل في الذّهاب إلى الأماكن، ويتدخّل في العودة منها، سواء كانت سوق الخضار المجاور، أو مستشفى الطّوارئ، أو شاطئ البحر، أو غرفة النّوم".[61]

رام الله، العاصمة السّياسيّة، ليس لها دور في السّيادة، لا تستطيع فعل شيء، لا كلمة لها في اتّخاذ الإجراءات، "فإسرائيل تغلق أيّة منطقة تريدها في أيّ وقت تشاء، تمنع الدّخول والخروج لأيّام، أو لشهور حتّى تزول الأسباب، وهناك دائمًا أسباب، تنصب الحواجز على الطُّرُقات في المدن".[62] وليس الأمر كذلك وحسبُ، بل " يعتبرون القدس إسرائيل، الإغلاق يعني منع التنقّل بين مناطق الحكم الذّاتيّ وإسرائيل، إلّا لأصحاب التّصاريح الإسرائيليّة، أو إذا كان معك ما يثبت أنّك V.I.P"[63]

رام الله، العاصمة السّياسيّة، عاجزة أن تفرض لغتها على الموقف، سيّد الموقف حتّى في اللّغة هو الآخر، "كلمة (المحسوم) سمعتها هنا أوّل مرّة، المحسوم هو الحاجز بالعبريّة، الشّعور الوليد بالحريّة مؤقّتٌ".[64]

الآخر استولى على الأمكنة، وغيّر مسمّياتها المرتبطة بلغتنا، وطبيعتنا، وحوّلها إلى أسماء تعلن سيادته في اللّغة، والمعالم، "أمّا الحرش الصّغير الّذي اكتسب اسمه من كثافة الشّجر فيه، فقد قال لي حسام: إنّه أصبح مستوطنة إسرائيليّة كبيرة يسمّونها (حلميش)، استولت إسرائيل على الحرش كلّه، وعلى مساحات كبيرة من الأراضي المحيطة به، وبَنَتِ المساكن والمرافق، وأحضرت المستوطنين، وانتهى الأمر، الطّريق المتفرّعة إلى الحرش، ككلِّ الطّرق الجانبيّة المؤدّية للمستوطنات مغلقة أمام الفلسطينيين، ومخصصة للإسرائيليين وحدهم".[65]

رام الله، العاصمة السياسيّة، لا تستطيع أن ترقى بنفسها، ولا أن ترفع من شأن قراها، "إنّهم لن يتركونا نرتفع بالقرية إلى ملامح المدينة، أو نرتفع بمدينتنا إلى رحابة العصر...الاحتلال تركنا على صورتنا القديمة، وهذه هي جريمته".[66] فالسّياسة طغتْ

على حُلُم البرغوثيّ، كان يحلم لمدينته بالرقيّ والازدهار والنّماء، لكنّه ألْفى سياسة الاحتلال قد باعدتْ بينه وبين ذلك الحلم.

رام الله، تمثّل السّيادة المسلوبة، حتّى في توقيتك، يجب أن تجعل أوقاتك، ومشاويرك خاضعة للسّيادة العليا، الّتي هي سيادة الآخر، "اقترح أبو حازم أن نعود قبل حلول الظلام إلى رام الله، كانت حكومة إسرائيل قد قرّرت إغلاق الضّفّة منذ وصولي بسبب الانتخابات العامّة تخوُّفًا من عمليّات حماس".(67)

رام الله، ذات السّيادة المزعومة، لا تستطيع بسط سيادتها على القرى التّابعة لها، فأهالي قرية دير غسّانة "ممنوعون من التّعمير والعمل في محيط القرية، والمناطق الّتي تعتبرها إسرائيل جزءًا من ترتيباتها الأمنيّة".(68)

سيّارات رام الله، الّتي تجوب شوارع رام الله، تطفح بفقدان سيادتها، وتنبئ عن أوسلو المقيتة، الّتي لن تقود إلا إلى الجحيم، "لوحات الأرقام على السّيّارات مختلفة الأشكال والألوان بعضها يحمل بعضها مختصراتٍ عبريّة"،(69) في رام الله تتجلّى السّيادة الإسرائيليّة، "فالأعلام الإسرائيليّة ترتفع على مداخلِها، وتلاحظ أنَّ الكتابة على إشارات المرور باللّغة العبريّة فقط".(70)

كلُّ شيء في رام الله ينبئ عن غياب سيادتها، وتَحَكُّم سيادة الآخر، ويطمس الذّات الفلسطينيّة، "إسرائيل تحرمنا من السّيادة حتّى على وسائل المواصلات، وما تزال هي المرجعَ لنا في الأمور السياديّة، شفتهم على الجسر؟ ماذا يفعل الطّرف الفلسطينيُّ على الجسر؟"، ويزداد الأمر تفاقمًا وسوءًا عند البرغوثيّ، وتضمحلُّ صورة رام الله عنده، عندما يعلم أنَّ هذه السّيادة نفسَها، خاضعة للسّيادة العليا، فأصحاب السّيادة العليا "يمنعون حتّى القيادات من السّفر إنْ أرادوا، تظنُّ أنَّه بإمكانك الذّهاب إلى القدس؟ أو حتّى إلى غزّة؟ أعلنوها منطقة مغلقة، وحجّتهم في هذه المرّة الانتخابات، يمنعون

المصلّين من الوصول إلى الحرم حتّى يوم الجمعة، حواجزُ وتفتيشٌ وأجهزة كمبيوتر، لا يتوقّفون عن توجيه رسالة واحدة لنا، وبكلّ السُّبُل: نحن الأسيادُ هنا".[71]

فقدان السّياسة، بكلِّ مظاهرها المتنوّعة، الّتي تقدَّمَ الحديثُ عنها، لم تكن في نظرِ البرغوثيّ، والواقعُ كذلك، إلّا تأكيدًا لفشل اتفاقيّة أوسلو، والخيبة التّي جناها الجانب الفلسطينيّ منها، وفشل المفاوضين الفلسطينيّين في بلوغ الأهداف، وآمال الشّعب في التحرّر والاستقلال. [72]

رام الله: طمسُ الثّقافة، وتماهي المثقّفين مع السّلطة:

مريد البرغوثيّ شاعر وروائيّ، فهو من رجال الثّقافة وأهلها، فكان لا بدَّ أن يعتني بالجانب الثّقافيّ، ومعالم الثّقافة، والمثقّفين، في مدينته رام الله، بعد أن غُيِّب عنها ثلاثين عامًا، لكنَّه وجد الحياة الثّقافيّة في مدينته يُتحسَّرُ عليها، إذ رأى الثّقافة قد أسدِل السّتار عليها، وأظلمَ نجمُها، وخَفَتَ صوتُها، فهذه "دور السّينما الثّلاث معطّلَةٌ، ومغلقَة الأبواب منذ سنوات طويلة، يافطاتها منزوعة، والمناطق المحيطة بها مظلمة، المكتبات لا تبيع الكتب، تحوّلتْ إلى بيع النثريّات والحلوى والأدوات المدرسيّة البسيطة"،[73] و"لا كتبَ، ولا مكتباتِ، ولا جرائدَ، ولا مجلّاتِ، كلُّه ممنوعٌ".[74]

ومهمّة المثقّف أن يضطلع بدور محدّد، فلا يمكن مسخُ دوره ليصبح مهنيًّا مجهول الهويّة، ينتمي إلى طبقةٍ ما، ويمارس دورَه فحسب، ولكنَّ المثقّف صاحب موهبة خاصّة تمكّنه من حمل رسالة ما، أو يمثّل وجهة نظر معيّنة، أو فلسفةً ما، ويكون في ذلك ممثّلًا للمجتمع كلّه،[75] ولكن أدركت السّلطةُ، الّتي كانت رام الله عاصمتَها السّياسيّة، خطرَ المُثقّف عليْها، فأخمدتْ صوتَه بتقريبِه إليْها، فصار جزءًا من جسمها، ناطقًا، أو ناعقًا باسمها، "الجسم الأعظم من المثقّفين الفلسطينيّين تماهى مع السّلطة، اقترب منها

أكثر ممّا ينبغي له، ارتاح على مقاعدها، ولذَّ له أنْ يقلّدها، ويتماثلَ مع صفاتها، كثيرٌ من المؤيّدين والمعارضين تشابهوا عند هذه النّقطة".(76)

مدينته الّتي حلم بالرّجوع إليها، والاندماج معها، لم تعترف به، ولم تتقبّله إلّا بأن يكون متماهيًا مع السّلطة، يعمل تحت يدها، ويضرب بسيفها، "ربما ارتأى البعض أنَّ المكان الطّبيعيّ للمثقّف الفلسطينيّ هو بقرب القيادة، لكنَّ عواقب هذا الخيار لم تكن دائما عواقبَ محمودةً، بالإضافة إلى الاستعداد الشخصيّ للفساد لدى عدد من الأفراد في هذا المجال أو ذاك، أمّا عيبي الشّخصيّ فكان أنني أستسهل الانسحاب عندما أرى ما لا يَسُرُّ، أدير ظهري، وقد أثبتتْ لي الأيّام أنّه كان من الأفضل لو تحمّلتُ قليلًا، وحاولتُ كثيرًا، وضعتُ نفسي على الهامش هربًا من أيّ ملمح من ملامح استبداد السّياسة أو الثّقافة".(77)

يُلمح البرغوثيّ في الفقرة السّابقة، إلى الضّغط الّذي مورسَ عليه، بوصفه مثقّفًا من مثقّفي فلسطينَ، وقد حاولت السّلطة أن تشدّه إلى جانبها، ليكون صوته معها، فلم يستطع، وآثر الانسحاب، الانسحابَ من كلّ رام الله، والقفولَ إلى المكان الّذي قدمَ منه، وما كان انسحابه إلا فِرارًا من الاستبداد السّياسيّ والثّقافيّ الّذي يتعرّض له، فلم يجد البرغوثي مدينته رام الله تعطيه تلك المساحة من الحريّة السّياسيّة الّتي كان يجدها قبل ثلاثين عامًا، فرام الله لا تعني له بعد أن رآها سوى التّضييق السّياسيّ، وتكميم الأفواه.

رام الله: السّلطة الفاسدة، والتّفاوت بين السّلطة والشّعب:

رَزَحَ الشّعب الفلسطينيُّ رَدَحًا غيرَ يسيرٍ، تحت الاحتلال، والظّلم، والقسوة، وممارسة الفوقيّة عليه، وقد عانى بسبب ذلك أقسى صنوف العذاب، فكان المتخيّلُ عند البرغوثيّ وغيره، أن يؤثّر هذا الجانب إيجابًا في نفوس الفلسطينيّين بعد دخول السّلطة؛ سلطةً، وشعبًا، فيكونَ همُّ الجميع هو مصلحةَ الجميع، ويعيشوا أسرةً واحدةً متكاتفةً؛

نسيانًا لِما لاقوْا وعانوُا، فطار البرغوثيُّ فَرِحًا إلى رام الله، الّتي تمثّل من جهةٍ العاصمة السياسيّة لكلّ فلسطين، ومن جهة أخرى مدينته الحبيبة، منتظرًا بشوق، رؤيةَ تلك المدينة الفاضلة الّتي كانت مادّة أحاديثه في الغربة، فما الّذي وجد رام الله عليه؟

وجد البرغوثيّ، ذلك الطّائرُ بكلّ أحلامه وخياله وشوقه، وجدَ مدينته الحبيبة رام الله مدينةً، وعاصمةً تحتضن مسؤولي السّلطة، وتجعل مستواهم فوق مستوى الشّعب، وجدها تبيح لهم ما كان يمارسه الاحتلال على وطنه، فهاهم المسؤولون يستحوذون على الامتيازات، ويعيشون في أبراجهم العاجيّة، غيرَ آبهينَ بمن هم دونَهم، "تطوّر التليفون فأصبح (بيليفونًا) محمولًا ومتنقّلًا في جيوب مسؤولي السّلطة الوليدة بشكل يثير استفزاز المواطنين العاديّين، إنَّهم مستفَزّون رغم علمهم أنَّ الخطوط العاديّة غير متوفّرة في الضّفة الغربيّة وغزّة، وأنَّ في هذه المسألة نوعًا من أنواع الاضطرار".[78]

قد يقول قائل: إنَّ مسؤولي السّلطة مضطّرون لذلك، فلمَ الغضبُ من الشّعب؟ والجواب عن ذلك التّساؤل يكون بالنّظر إلى تراكمات ممارسات رجال السّلطة هؤلاء، فالأمر ليس مقتصرًا على الجوّال المحمول، يقول البرغوثيّ: "نوعية البيوت التي يشتريها الوزراء والوكلاء والمدراء العامّون، أو حتّى تلك التي يستأجرونها بأسعار عالية، السّيارات الفخمة الّتي يركبونها، ومظاهر سيادتهم الشّخصيّة الّتي لا تتناسب مع غياب سيادتهم الوطنيّة، ولا مع مظهر سيادة الفلسطينيّين عمومًا".[79]

ويستطرد البرغوثي في وصف التّفاوت الّذي بين الحكومة والشّعب قائلًا: "فهل يستوي الّذي في سيّارته بالون هوائيّ، والّذي تخلو سيّارته من البالون؟ وهل يستوي الّذي لديه سائقٌ والبائس الّذي يسوق سيّارته بنفسه؟".[80]

عاد البرغوثيّ إلى مدينته رام الله؛ ليرى الجمال الّذي تخيّله في غربته ماثلًا حقيقةً أمام عينيه، ولكنْ وجده على غير ما حلم به؛ إذ وجد رام الله السّلطةَ الفاسدةَ، الّتي

اتّخذت القيادةَ مطيّةً تصل بها إلى مطامعها الشخصية، واستغلالها لخيرات البلاد، "يتحدثون عن العمولات التّجاريّة الّتي تقوم بها أجهزة الأمن الفلسطينيّة أحيانًا، وعن الكسب المبالغ فيه، وعن مظاهر الفساد الاقتصاديّ المرافق لعمليّات إعادة التّعمير والبناء".[81]

ومن مظاهر رام الله، العاصمة السّياسيّة الفاسدة، تأخُّر النّموّ فيها، "هل يُعقل أنْ أذهب إلى سوق الحسبة، سوق الخضار في رام الله، بعد غياب ثلاثين سنةً فأجدها على حالها الّذي كان رثًّا منذ ثلاثين سنة؟ ... وهل يُعقل أن أجد أرضيَّتها كما كانت تمامًا، كسطح المستنقع، لزجةً، غامقةَ اللّونِ، مغطّاةً بالبقايا والقشور والعفن الملوَّن؟ وهل يُعقل أن أتأمَّل واجهاتِ المباني المطلّة على الشّارع الرّئيسي، فأجدها تكاد تشبه أرضيّة الحسبة".[82]

وهذا التّمثّل لرام الله قد أسهم الاحتلال في تكوينه، "كم مكتبةً كان يمكن أنْ تتأسّسَ في رام الله؟ كم مسرحًا؟ الاحتلال أبقى القرية الفلسطينيّة على حالها، وخسفَ مدُنَنا إلى قرًى، إنّنا لا نبكي على طابون القرية، بل على مكتبة المدينة، ولا نريد استردادَ الماضي، بل استردادَ المستقبل، ودفعَ الغد إلى بعدِ غدِهِ".[83]

رام الله: الغربةُ والمنفى:

يرتبط مفهوم الحنين بالغربة، من خلال استرجاع العهود القديمة الّتي تستمتع النّفوس بتخيّلها وذكرها، وتتألّم من ذهابها وانصرامها،[84] والمعهود عن الغربة أن تكون في المنافي، ولكنَّ البرغوثيَّ عندما عاد إلى رام الله، وجدها تمثّل منفى وغربةً، تضاف إلى المنافي السّابقة، خارجَ وطنه، وقد أحسّ البرغوثيّ بهذه الغربة منذ اللّيلة الأولى الّتي وطئت قدماه فيها رام الله، فهو يقيم في شققٍ ومنازلَ مؤقّتةٍ، تظهر مدى اغترابه، فقد أقام في منزل أبي حازمٍ ضيفًا، "أنا في رام الله، وفي (برندة) (أبو حازم)"، [85] وقد

راح أبو حازمٍ يعيد ترتيب منزله بحيث يكون ملائمًا لهذا الضّيف، فلو كان المكان مكانَه، ولو لمْ يكن غريبًا عنه، لما غيَّر أبو حازم في ترتيبه شيئًا، "من أكثر ما يسبب الحرج أن يزدحم بيت المضيف بضيوف الضّيف، الّذين يأتون للسّلام عليه، البعض بدافع الواجب، والبعض بدافع المحبّة، على قلبي مثل العسل، كان يقول أبو حازم، وتثني على كلامه فدوى، بعض الأصدقاء كان يأتي للسّلام عليَّ قرب منتصف اللّيل أحيانًا، وكنت أحرج من اضطرارهما للسّهر أبعدَ ممّا اعتادا".[86] لم يكن الفرق كبيرًا بين هذه الشّقق، والفنادق الّتي تنقّل بينها في المنافي، حتّى إنّه لِفرط الشّبه بينهما، ولشدّة ما تمثّله رام الله من غربة؛ فكّر أن يقضي فترة غربته، إقامتِه في رام الله، في الفنادق[87].

رام الله المكانُ شكّلت غربةً لدى البرغوثيّ، فقد انسلخت من زمانها، فالألفة هي مع رام الله المكانِ والزّمان، فلا قيمة للمكان دون الزّمان، "أليس طريفًا وغريبًا أننّا عندما نصل إلى مكان جديد يعيش لحظته الجديدة نروح نبحث عن عتيقِنا فيه؟ هل للغرباء جديد؟ أم أنّهم يدورون في دنياهم بسِلال ملأوها بِبُقَع الماضي"،[88] نعم، علاقته بالمكان نابعةٌ من علاقته بالزّمن، "رأسي على المخدّة في بيت (أبو حازم)، هذا بيتٌ آخرُ للمسافر، هذه مِخدَّةٌ أخرى لرأسي ... أنا أعيش في بُقع من الوقت بعضها فقدته، وبعضها أملكه لبرهة، ثمّ أفقده؛ لأنّني دائما بلا مكانٍ"،[89] عندما انسلخ المكان عن الزّمان حصلت الغربةُ، فالرّجل لا يعرف النّاس في المكان، ولا يعرف المكان نفسَه؛ لخروجه من الوقت، يقول حينما قدم على زوجة عمّه الّتي تجلس بين جاراتها: "سلّمت على جاراتها اللّواتي لم أستطع التّعرف على أيٍّ منهنَّ، قادتني إلى اليمين، حيث الغرفةُ الّتي كانت لنا في دار رعد، اكتمل العقابُ".[90] لم يعرف النّاس، والنّاسُ لم تعرفه، بل كانَ وافدًا دخيلًا، "من كلِّ الأولاد الّذين كانوا يتنزّهون أو يلعبون في مداخلِها وطرقاتِها، لم يعرفْني أحدٌ ... حتّى ذلك الشّيخ الّذي يسير ببطءٍ، وتأمّلٍ، لم يعرفْني، ولم أعرفْه،

لم أسألْ عمَّن يكونُ، لم أسألْ، سخيفٌ أن تطرح في مسقط رأسك أسئلة السّيّاح: من هذا وما هذا ... أليس كذلك؟". [91]

خروج البرغوثيّ من الوقت أنساه كلَّ شيء، "لم أعد أتذكّر أسماء القرى على جانبيِ الكيلومترات السبعة والعشرين الّتي تفصلها عن رام الله، الخجل وحده علّمني الكذب، كلّما سألني حسام عن بيت أو علامة أو طريق أو واقعة سارعت بالقول إنّني أعرف، أنا في الحقيقة لم أكن أعرف، لم أعد أعرف".[92]

لقد جعلت رام الله البرغوثيَّ الآخرَ الطّارئَ المنفيَّ، وغدا غريبًا دخيلًا عليها، "الملفت في حالة رام الله أو البيرة أنَّ الغرباء هنا ليسوا غرباء على الإطلاق، إنَّهم الأبناء الغائبون وقد أصابتهم الغربة، وأبناء القرى المحيطة، وأبناء المدن الضّائعة منذ النّكبة في 1948، الّذين اختاروا العودة إليها، والإقامة هنا تحديدًا".[93]

لم تكن رام الله تمثّل الغربة لمريدٍ وحده، أو للعائدين، بل كانت – كما يقصُّ النّصُّ السّابق – عنوانًا لاغتراب المقيمين فيها، "ليس الغريب وحده هو الّذي يشقى على الحدود الغريبة، المواطنون يرون نجوم الظّهر أحيانًا على حدود أوطانهم"،[94] ولم يكن شقاؤه بأقلَّ من شقاء من بقي في رام الله، "لم تكن متاعبي في المنفى أكثرَ من متاعب أصدقائي في أوطانهم".[95]

ومن مظاهر الغربة الّتي عاشها البرغوثيّ في رام الله عدم الأمان فيها، "لكنَّ الأمور هنا مؤقّتة، الشّعور بالأمان مؤقّتٌ".[96]

لم تكن رام الله غربةً واحدةً للبرغوثيّ، بل كانت غُرُباتٍ، بعضها فوق بعض، فهو الشّاعر الّذي ينتظر أن يجدَ نفسه في بلده، وفي مدينته، فهل حقّقَتْ له ذلك؟ مجنون القرية الّذي عشق ابنة المختار لم يطلق عليه لقب شاعرٍ؛ إلّا لأنَّه كان يقول الشّعر،[97] وهذا هو البرغوثيّ يقف بين أهله يقول الشّعر، فهل تآلف المستمعون له؟ أم مصيرُه أن

يُحْكَمَ عليه بالجنون كمجنون القرية؟ لقد بدا البرغوثيّ الشّاعر غريبًا بين أهله، "إنّني ألقي الشّعر أمام أعمامي وأخوالي، أمام المختار والرّاعي والحرّاث والأمهات والجدّات والمتعلّم والأميّ والأطفال، تجمعهم هذه السّاحة الّتي لم يقف فيها شاعرٌ من قبلُ على الإطلاق ... لأوّل مرّة في حياتي أُلقي قصائدي أمام صفوف متتالية من ريفيّين يرْتَدون الحطَّةَ والعِقالَ، فيهم ابن الثّامنة، وابنُ الثّمانين، معظمهم لم يدخل في حياته مسرحًا، ولم يقتنِ ديوانًا واحدًا من الشّعر".[98] كان إنسانًا غريبًا، وشاعرًا غريبًا، "هؤلاء الأولاد والبنات الصّغار لو كانوا يشاهدونني مع آبائهم وأعمامهم، وفي دورهم، كلَّ مساء، منذ ثلاثين سنةً، هل كانوا سيطلبون توقيعي على (أوتوجرافاتهم)، كشاعرٍ غريبٍ؟"،[99] ويؤكّد البرغوثيّ رام الله الغربة للشّاعر بقوله: "وإذا كان شاعرًا كان غريبًا عن هنا".[100]

المبحث الثّاني

تحوّلات مدينة رام الله في رواية (رام الله الشّقراء)

تمهيد

عرض البحث في جانبه الأول صورة رام الله عند الشاعر مريد البرغوثيّ، وقد كان كتابه (رأيت رام الله) قريبًا نوعُه الأدبيّ من السّيرة الذّاتية، أو السّيرة الرّوائية، إذا جاز التّعبير، ومن ثَمَّ فقد كان وصف رام الله عند الشّاعر البرغوثيّ متّصلًا بالنّظرة الشخصية له تجاه تلك المدينة، وما حدث له فيها من أحداث ومواقف، أمّا (رام الله الشّقراء) عند يحيى عبّاد، فقد كانت عملًا روائيًّا عبّر فيه الكاتب عن التّغيرات والأحداث الطّارئة على مدينة رام الله بعيدًا عن تجربته الشخصيّة، ودون أن يوثّق لسيرته الذّاتيّة، وهذا الاختلاف في نوع العمل، يتبعه اختلاف في رؤية كلا المؤلّفين أو الكاتبين للمدينة.

عتبة العنوان:

يمكن القول إن رواية رام الله الشقراء ، كعين كاميرا حديثة تلوح في السماء، تتقصى واقع مدينة رام الله مستفيدة من التقنيات المدمجة فيها من تقريب وإبعاد، بعد نحو عقدين ونصف على أوسلو، ترصد لنا كل المشاهد بظاهرها وما وراء الكواليس، لتدوّنها سوسيولوجيًّا وثقافيًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا، وتخرج لنا بعد ذلك برواية جريئة تتجاوز التشخيص، ولا تتورّع عن دقّ نواقيس الخطر وتعليق الأجراس في كلّ صفحة من صفحاتها، وفضح تغوّل مؤسّسات قوى التمويل الأجنبي ومراكزه، فوجود لفظة الشّقراء في العنوان له علاقة بالغرب الأشقر اللّون، في مقابل ميوعة النّضال السياسي لجهة الصراعات الخفية التي تشوب العلاقة بين فصائل المقاومة الفلسطينية، وتنامي رام الله وسط ذلك بوصفها مدينةً لا تدّعي الفضيلة بقدر ما لا تجد ثوبا كوزموبوليتانيا على مقاسه.

رام الله: طغيان المادة، والسّرعةُ، والتّوسع العمرانيُّ

عبّاد يحيى قادمٌ من ريف مدينة، هي الأخرى تُعدُّ ريفًا، من بيئة تسودها الطّبيعة، والمروج الخضراء، والأبنية القديمة البسيطة، لينتقل إلى عالمٍ آخرَ، يسوده طابع المدنيّة، فأوّل ما يلفت نظره هو تلك العمارات الشّاهقة في رام الله، يقول: "أمشي في شوارع رام الله، وأعلو ببصري صوب العمارات"، [101] ويقول: "لديهم عمارةٌ هائلة في الماصيون".[102]

هذا جانبٌ من جوانب التّوسع العمرانيّ، وطغيان المادّة الّذي يبهر عين الوافد إلى المدينة أوَّل الأمر، ولكن لطغيان المادّة جوانبُ عديدةٌ، من بينها غياب روح الحبِّ والتآلف في العلاقات، وانبناؤها من جانب ماديٍّ بحتٍ، يقول عبّاد على لسان أحد شخوص الرّواية: "أنا أكثر من ستّ شهور ما بصاحب"، [103] ويقول على لسان آخرَ:

"أكم أسبوع وبيجي الموسم، وبتتعبّا البلد أجانب، رح تدبّر وحدة أحسن منها، وخليك طقطق، بلاش شغل الالتزام والوفاء"،[104] فمثل هذه العلاقات يموت فيها الحبُّ والتآلف والاحترام والوفاء.

كما أنَّ الإنسان في رام الله، أصبح يُنظر إليه على أنّه كتلة ماديّة، وليس روحًا، ولمّا كان هذا الإنسانُ المادّة في رام الله لا يليق، ولا يسرّ النّاظرين، ويُلْحِق أذًى بأبصارهم "فلا بدَّ من العمل بالاستعانة بالذّوق الفرنسيّ، على تحسين هذا المكوّن الرّئيس في صورة الفلسطينيّين الجديدة".[105]

رام الله: الانفتاحُ، وانهيارُ القيم، ورام الله البغيّ.

خلافًا لرام الله مريد البرغوثيّ، الممتدّة من الستينيّات إلى التّسعينيّات، الّتي لم يبدُ فيها انهيار القيم الأخلاقيّة، ونأت عن الانفتاح في العلاقات، بل كانت قريبةً إلى أجواء الرّيف، فإنَّ رام الله عبّاد قد تحلّلتْ من هذه القيم، وبدا فيها الانفتاح واسعًا سائغًا، وأُولى درجات هذا الانفتاح ما قام به صاحبُ الرّوايةِ المنتقدُ لهذا الانفتاح، من مراسلة يوميّة حتّى منتصف اللّيل، لصديقةٍ له تعمل في وزارة الصّحة، غيرَ متحرّجٍ عن الحديث في أمور ساخنة، ينتقد من خلالها تحرّرَ العلاقات في رام الله، ولو بقي في ريف قريته لما أقدم على ما أقدمَ عليه، فالمدينة فضاءٌ غيرُ مَدين، وإنّما هو فضاءٌ يظهر المتستّرين على حقائقهم.

ومن مظاهر الانفتاح الصّغرى في رام الله، تبدُّل طريقة اللّباس عند الفتيات، "تضع على رأسها شالًا أسودَ، وتلبسُ قميصًا أزرقَ فضفاضًا، وبنطالًا ضيّقًا بلون شالها"،[106] ومعَ أنَّ هذا التحوّل في الفترة الزمنيّة الّتي خرجت بها رواية عبّاد لم يعد مقتصرًا على المدينة الكبرى، بل طال المدن المتمدنة، كما طال قطاعًا واسعًا من الرّيف، إلّا الانفتاح في العلاقات، هو ما يُعَدُّ تحوّلا للمدينة، فتلك الفتاة "يقابلها شابٌّ أشقرُ أجنبيٌّ، كما هو

واضح، يكتب بقلم الحبر في كفِّ يدها اليُسرى، ولم أعلم أكانت تضحك من فرط الدّغدغة على كفّها الأبيض؟ أمْ من وقْعِ ما كتب الأجنبيُّ عليه".[107]

ومن مظاهر انهيار منظومة القيم في رام الله، ومن الأمور الوافدة عليها، تبادل القبلات بين الشّباب والصّبايا، وافتتاح دورٍ حاضنةٍ لهذه العادات، "جلست على الرّصيف المقابل للمسرح، أراقب الحشد الزّائفَ، يتبادلون العِناق والقبلات، ويفكّرون في تزجية ساعاتهم القادمة في (أرجوان)، أو (بيت أنيسة)، أو غيرِهما من ملاذات اللّيل المتأخّر"،[108] وفي مشهدٍ آخرَ: "على أبواب المركز، وداخله، يتبادل الجميع القبلاتِ والعِناقَ، وبالنّظر إلى أنَّ هذه الطّريقة في التّحيّة ليست منتشرة، إلّا في أماكنَ قليلةٍ، في الأراضي الفلسطينيّة، قد يكون للوجود الأجنبيّ أثرٌ في انتشارها هنا، حتّى الأوساط المنفتحة التّي يتبادل فيها الّذكور والإناث القُبلاتِ والعناقَ كأسلوب تحيّة، تختلف في طريقتها عن المنتشر هنا، وتظهر حميميّة مميّزة من خلال الاحتضان المتكرّر، بين شابٍّ وصبيّة، أو طريقة التّربيت على الكتف والظّهر". [109]

في رام الله، كانت الحفلات الصّاخبة الماجنة بين الشباب والفتيات المشوبة بالسُّكر وغيره، فهذا ماهرٌ يبّددُ أمواله "بحفلات الشّراب، واستضافة الشُّبّان والفتيات، في ليالي اللّهو في بيته، أو في المطعم".[110]

رام الله، العاصمة الموقوتة التي بدأت تتحلل من ذاتها إلى أن تصل لحد التنصّل، والتي تسمح لزوّارها بممارسة ما لا يسمح خفاءً، فهي عند عبّاد على لسان صديقته قبلةُ المثليين، هي محطة الانجذاب والإعجاب سرًّا، ترتب لهذه العلاقات، وتتلقفها على راحتيها، "وعلى بعد شارعين، كانَ السّيدُ الأوروبيُّ يتلفّتُ حوله، وإذا بصبيّه يأتي من عتمة الطّريق، ليمسك السّيد بيده، ويدخله سيّارته الخاصّة ...الأجنبيُّ يدفع للصّبْيَة، مقابل قضاء وطره، في شقّته الفارهة في حيِّ الطّيرةِ المُترفِ"،[111] والمصيبةُ أنَّ أهل

رام الله استساغوا هذه القيم الدّخيلة، فهذا أحدهم يقول: "لكلٍّ منّا الحقُّ في استخدام أطرافه كما يشاء".[112] وهذه صديقة الرّاوي تقول: "ليس لديَّ أيُّ قلق حيالَ المثليّينَ، ولماذا أقلقُ؟ لقد تصالحتُ مع الأمر منذ زمن، وأظنّهم يعيشون في رام الله حياةً آمنةً".[113]

كما أنّ المثليّة الجنسيّة صارتْ عند الفتيات أيضًا، فعبّادٌ يصف موقفًا كان قد شاهده عند حائط حجري قديم نحو مدخل مخيم قدورة لفتاتين إحداهما تبدو فلسطينية والأخرى أجنبية شقراء: "وفي ما كنت أراقبهما ترحلان وقد أمسكت الشقراء بخاصرة السمراء، أظنها التفتت إليّ ورمقتني بنظرة استخفاف أو ظَفَر، أعقبتْها بجذب خاصرة السمراء لتلتصق بخاصرتها كأنّها تؤكد امتلاكها!".[114]

- رام الله والغرباء (الغزو الأجنبيُّ النّاعم)/ غزو اللغة / الأخلاق / السّلوك / الثّقافة

تشكّل علاقة المدينة بالآخرين صورة أصيلة في تحديد معالمها، إلا أنّ هذه العلاقة التي مهما حاولنا توجيه الضوء نحوها، فإنها تلوذ فرارًا إلى العتمة لئلا تفصح عن حقيقتها، وهذا ما نجده حاضرًا في ذهن الروائي عبّاد يحيى، الذي يقدم لنا صورةً مغايرةً لرام الله، فمن الطبيعي أن يحدث انقلابًا في الصور التي يقدمها الروائيّون، فما الذي يسعى قوله عبّاد مخالفًا فيه آراء غيره؟

من أمام مسرح القصبة يبدأ عبّاد يحيى برسم رام الله وهي تمد يديها للغرباء الأجانب، الغرباء الذين أحبوا رام الله ومكثوا فيها، فصاروا أبناءها، بل جزءًا ثقافيًّا منها، وبسببهم نعِتَتْ رام الله بالشّقراء، ومن المشاهد الّتي تستحضر كثرة هؤلاء الأجانب في رام الله: "هؤلاء الفرنجة لن يتركونا بخير، يملؤون رام الله عن آخرها"،[115] ومشهدٌ آخرُ "غالبيّة فِرَق الرّقصِ غربيّةٌ، وكان الأجانبُ يشكّلون قرابة ثلث الجمهور"،[116] وفي

محاضرةٍ ألقيت في رام الله؛ احتفاءً بأحد الأجانب "كانت المحاضرة باللغة الإنجليزيّة، من دون ترجمة، كأنَّه يحاضر في لندنَ، كان حضور أبناء البلد غير مطلوبٍ ولا وارد، فلم يكن هنالك إلّا بضعةُ فلسطينيّينَ، والحشدُ الباقي من الأجانب"،[117] أمّا وزراة الصّحة في رام الله، فكان من ضمن موظّفيها أجانبُ، لولاهم لانهارت "وللعلم، فإنَّ وزارة الصّحّة تكاد تنهار لولا وجودهم في البلد ... عددٌ كبيرٌ من الموظّفين الفلسطينيّين والأجانب"،[118] بل كانوا حاضرين في كلِّ المؤسّسات "الكثير من المؤسّسات توظّف أجانبَ وأجنبيّاتٍ".[119]

ولم يقتصر غزو هؤلاء الأجانب لرام الله على وجودهم فحسب، بل أحاط غزوهم باللّغة، فتلك السيّدة المحجّبة ذات الجلباب، تستغني عن لغتها، وتستبدل بها لغة الفرنجة، قائلةً: "بونسوار مسيو نجيب"،[120] وقد انتشرت لغتهم انتشارًا صارخًا: "بروفيشنال، موتيفيشن، فند رايزنج، برين ستورم، أتيتيود ... والكثير من مفردات مؤسسات المجتمع المدنيّ الغارقة في خيالات المانحين، وهذه الألفاظ تمَّ نحتُها لتتوافق مع الحديث اليوميّ، وباتت تُعرَّبُ وتُثنّى وتُجمع، وغابتْ مقابلاتُها العربيّة عن الاستخدام، تقريبًا، وبات الكثيرون مقتنعينَ بأنَّ لغةً جديدةً تنتشر في رام الله، تخاطبُ أموال المانحينَ".[121] كما شمل الغزو الأجنبيُّ أنواع الطّعام، وطريقة تناولها.[122]

لقد اصطبغت ثقافة رام الله بهذا اللّون الأشقر، وأصبح سلوك الفلسطينيّ الّذي يرتاد المسارح الثّقافية متماهيًا مع هذا الأشقر، فصار "جزء كبير من الفلسطينيّين هناك هم إلى الأجانب أقرب لغةً وهيئةً وسلوكًا".[123]

ولكن، هل كان وجود هؤلاء الأجانب في رام الله، وسيطرتهم على الوظائف، ونشر لغتهم عبثًا؟ إنَّ وجودهم ينبئ عن التّخلي عن الهويّة الفلسطينيّة، والانصراف خلف الملاهي؛ لإبعاد الفلسطينيّ عن التّفكير في قضيّته الكبرى مع الاحتلال، إنَّ وجودهم

في رام الله، هو دور تكميليٌّ للاحتلال، يهدف إلى ترويج ثقافة مختلفة تعتمد الشّهوة والميولات والعواطف والغرائز، عبر مجموعة من الفتيات الشّقراوات اللواتي يُسْقطْن الشّباب والشّاباتِ.

أصبحت رام الله تمثّل دَوْرَ أنثى تتعرّض لاغتصاب وغزو أشقرَ ناعمٍ، وإنّ وجود هذا العنصر الأشقر يمثّل الموساد والجاسوسيّة في رام الله، فهذه الأفواج "تُسرَّب من داخل إسرائيلَ، عبر معبر قلنديا، يبدو الأمر وكأنّك تُدخل عاملًا ما إلى العيّنة تحت المجهر، وتدرس على مهل أثره في ما يجري، فما بالك إذا كان هذا العامل على دراية بدوره ووظيفتِه!"، [124] وهذا الدّور هو الجاسوسيّة، والإسقاط، وطمس الهوية الفلسطينيّة، هذا الدّور الّذي يؤكّده عبّاد في موقف حصل مع سامرٍ، دليل الأجنبيّات، مع إحداهُنَّ "قبل أنْ يلجَ باب الشُّقّة حيث تسكنُ، تنبّهَ لكلماتٍ عبريّةٍ مطبوعةٍ على أوراقٍ في حقيبتِها". [125] وعلى لسان رشدي: "بين كلِّ ثلاثة أجانب في رام الله، أربعة إسرائيليّينَ". [126] وإسرائيل تستقطب هؤلاء؛ لتنفّذَ من خلالهم أجندتَها "إسرائيل، وبجهود المتواطئين، تطبّعُ المكان؛ ليستسلمَ ويتناسبَ مع حاجاتها، في أيّ معركة مفترضة، فلا أرض تصلح لمواجهتها، هذا إن توفّر من يريدون المواجهة، وهذا حال رام الله". [127] لقد تبدّل حال شباب المقاومة، ولهثوا خلف أولئك الأجانب الّذين "نصفهم إسرائيليّون في رام الله الأليفة، هم ينتمون إليها اليوم أكثر من انتمائهم للمخيّم وصفّورية". [128] وهذا المشهد الأخير يكشف عن تحوّلات مناضلي رام الله، والموات الكفاحيّ فيها، هذه المدينة الّتي كانتْ من أكثر المدن مقاومة خلال الانتفاضتين، ولا شكَّ أنَّ في هذا انتقادًا للسّلطة، واتّفاقيّة أوسلو؛ إذ هي الّتي روَّضَتْ الشّباب الفلسطينيّ. [129]

رام الله: من الثورة إلى الانهزام (رام الله المكشوفة)

عقب كل متغيّرات سياسيّة تحدث فوضى وشغب أو انهزام وعتب، فما الصورة التي عرّج عليها الكاتب في نسجه مشروعه الروائي عن هذه المدينة؟

يُلقي عبّاد اللوم على رام الله التي كانت بؤرة الثورة الفلسطينيّة وغدت مركزًا مراقبًا بكاميرات وضعت بصورة إجباريّة في المحالّ التجاريّة، "السّير من فندق قصر الحمراء صوبَ دوّار المنارة عبر شارع الإرسال، ومن ثمّ العبور إلى دوّار السّاعة، والعودة منه إلى شارع رُكَب حتّى آخره، كلّه مرصود بهذه الكاميرات الّتي يُفرَضُ على أصحاب المحلّات والمتاجر تركيبُها"،[130] حتى البقّالات الصغيرة التي ربما ينأى السارق عنها فلا تكون وجهته أبدًا، وهنا يثير الكاتب بعض الشكوك من غرضيّة جعل المدينة مكشوفة الصورة عبر عدسات صغيرة، وهي عنده صورة انهزام واتّهام غير مباشر للسلطة بتثبيط المحاولات الوجوديّة للحراكات المقاومة، "من يُصدّق أنّ هذا يجري في شوارعَ كانت تعطل فيها الإنارة ليلًا؛ حتى يتحرك أفراد الفصائل من دون أي مراقبة، أو إمكانية رصد من أحدهم ، يوزعون منشورًا سياسيًّا، أو يكتبون على الجدران شعارات الانتفاضة وتهديد العملاء بالعواقب الوخيمة".[131]

وتصديقًا للحكمة القائلة: "من كان بيته من زجاج فلا يرمِ بيوت النّاس بالحجارة"، يقف عباد مسترشدًا برأي صديقه موقف المتهكّم من المدينة التي تمثل الشعب، شعب الحجارة لتتحول بامتدادها العمراني المموّل إلى شعب الزجاج: "آه يا زمن الانكشاف! يتهكّم صديقي، ويقول معلقًا على عمارات الزجاج، تتكاثر كالفطريّات في رام الله، شعب الحجارة يتحول إلى شعب الزجاج".[132]

ملامح المكان: طمْس التّراث لصالح البُنيان.

يشعرنا الكاتب بقلقه حيال التمدد العمرانيّ القاتل، ويبدو ذلك جليًّا في موقفه من مآل استوديو (أبو عفيف الآرمني) الذي تحوّل فيما بعد إلى محمص المكسرات، وكما نسميها " التسالي "،[133] وهي في ذهنه صورة تختصر حبّ السكّان للتسلية في كل شيء، حتى الذاكرة!

حتى دُور السينما في رام الله أسماك صغيرة تلتهمها الحيتان المسمّاة بالمجمّعات التجاريّة، فهي الأماكن الخصبة لهواة مشاريع المجمّعات التجاريّة للإجهاز عليها ونسفها في أجواء تحتفي بالفيزا كارد وتودّع التذاكر!

" أظن أنه كان يدرك جيّدًا مآل مشروع عمره، بالتأكيد كان يراقب سينما الوليد، وهي تهدم لمصلحة الأورام، المسمّاة مجمّعات تجاريّة، هذه الأورام تتخيّر دور السينما، لتفتك بها وترتفع في الفضاء مجازًا عن كل شيء، وها هو ورم آخر يتطاول مكان سينما دنيا، ويجهز عليها، رام الله تتنكّر لتذاكر السينما وتحتفي بالفيزا كارد".[134]

رام الله: الثقافة المتخبّطة والهويّة المهوّدة

بنفسٍ سوداويّ ونظرة متشائمة، يصف عبّاد واقع الثقافة ملخّصًا بأشعار درويش المستهلكة على أبواب الحانات والبارات والمطاعم، والمناسبات الثقافية التي لا تعدو كونها مناسبة اجتماعية يجتمع فيها أعداد قليلة، وإنه قد يخشى المسموح أكثر مما لا يُسمح، كيف تسمح "إسرائيل" بدخول لوحة بيكاسو إذا ما كان الأمر مرضيًا لها؟![135]

" كم تقاضت شركات التأمين الإسرائيلية، لضمان دخول وخروج آمن للوحة، وكيف يشعر فلسطيني معدم حين يعرف أن دخول اللوحة لرام الله، كلّف قرابة الثلاثة[136] ملايين دولار! ماذا سيقول المتحدثون، وكيف سيبررون هذا السيرك الثقافيّ ؟".[137]

وأكثر ما يقلقه ما يركّز عليه المانحون والمُمَوّلون لمشاريع فنيّة، وكأنها مشاريع ترويضية بامتياز"، وتستعمل هذه الحركات المشبوهة التي تلقى الترحيب، حتى في صفوف المثقفين "عرّابي الهم الفلسطيني"، بلغة الرواية لطمس الهوية الفلسطينية، وترويض الفورة الشعبية الغاضبة المناهضة لكل أشكال الاحتلال، وتستخدم الجنس مدخلا لسحر العقول وإلهاء الفكر، إذْ تجيش هذه الجمعيات مجموعة من الأجنبيات لاستمالة الشباب الفلسطيني والدخول معهم في علاقات جسدانية وحميمية القصد من ورائها تعديل الرؤى، وتخريب المزاج، وإفساد الخُلُق، وتأجيل التفكير في الهمّ الأساس، والقضية الأم التي هي طرد المحتل بكل تجلياته".[138]

إنّ الصِّحافة الثّقافية في عاصمة أوسلو تُقدَّمُ في قوالبَ جاهزةٍ، بحسب ما ترتئيه الأوروبيّة المانحة، الّتي هي امتداد للاحتلال، علاوةً على أنَّ نصيب وزارة الثّقافة في عاصمة أوسلو وسلطتها لا تتجاوز أعشارًا تُرى بالعين المجرّدة. [139]

لقد غدَتِ المهرجانات الثّقافيّة في عاصمة أوسلو لا تقامُ إلّا بطغيان حضور الصّدور العارية، والملابس الرّقيقة المُمزّقة، والخُصور المكشوفة،[140] فهذه هي إفرازات سلطة أوسلو الّتي خلطت الثّقافة بالانحلال أوّلا، ثمّ بالجاسوسيّة أخيرًا، فلم يكن ذلك الانحلال إلا شَرَكًا للإسقاط الأمنيّ.

وبعدُ، فقد خلصت الدّراسة بعد هذه الموازنة إلى النّتائج الآتية:

1- جاءت صورة رام الله عند البرغوثيّ تعبيرًا عن التحوّلات الّتي مرّت على المدينة خلال ثلاثينَ عامًا، هو لم يكره لِرام الله أن تتّسعْ، ولم يكره لها أن تتطوّر، وتعلوَ بناياتُها، وإنّما كانت خيبتُه في رام الله ناتجةً عن الاحتلال الّذي يعيق نموَّ المدينة، الاحتلال الّذي يبسط سيطرته وسيادته على كلِّ رام الله، والأراضي الفلسطينيّة، لم يتّهم السلطة بالخيانة، وإنّما كان قلقًا من عجز السّلطة عن تحقيق الوعود بعودة

اللّاجئين والنّازحين وغيره، وانتقد السّلطة، ولم يعجبه سلوك رجالاتها، ولكنّه لم يلمّح إلى خيانة السّلطة، كما فعل عبّاد الّذي كان قاب قوسين أو أدْنى من التّصريح بذلك، كما أنَّ خيبته – في جلّها – مع رام الله، كانتْ خيبة زمانٍ، أكثرَ من كونِها خيبةَ مكان، فالوقت لم يعد هو الوقتَ، وناسُ اليوم لم يعودوا ناسَ الماضي.

2- جاء كتاب البرغوثي لتسليط الضوء على ممارسات الاحتلال، والخراب الّذي تركه على مدينة رام الله، والتّأثير في مظاهرها وعاداتها.

3- نظرة البرغوثي كانت تمثل نظرة إنسان مغترب عن مدينته أكثر من ثلاثين عامًا، فعند العودة شعر بالفرقة والتنافر مع رام الله؛ كون الأشياء كلها قد تغيرت، والنّاس كذلك.

4- إنَّ رام الله عبّاد تمثّل التّطورات الّتي حدثت بعد أوسلو، فكانت المدينة مختلفة، لم تعد تلك المدينة الرّيفيّة الوادعة الهادئة، بل غدت مدينة يتغوّل فيها المال، وتسودها علاقات اجتماعيّة دخيلة غريبة، من انفتاح اجتماعيّ، وسوق اقتصاديّة، ومؤسّسات أجنبيّة، وبَشرٍ غُرباءَ، وأصبحت مدينةَ سدوميّةٍ، وشُذوذٍ، وموطنًا للجريمة.

5- تمثّل رام الله عبّاد تراجعَ المبادئ والأفكار الثّوريّة المتحدّية للاحتلال، فقد أصبح التّأريخُ النّضاليُّ مصعدًا يتسلّقه شباب رام الله للظَّفَر بالنّساء الأجنبيّات الشقراوات؛ ظنًّا منهم، أنّهنّ يفضّلن صاحب التأريخ النّضاليّ. [141] لقد أصبحت خدمة الوطن عند شباب رام الله في تعلُّق أجنبيّة به، بعد ليلة شرقيّة، تلك الأجنبيّة التّي أقصى ما يمكن أن تقوم به لأجل فلسطين، أن ترسم عَلَمَ فِلسطينَ على ساقٍ، طالما لثمَها شباب رام الله. [142] كما تدين الّرواية اليساريّين، وتُعرّي تحوّلَهم من مناضلين ذوي مبادئ، إلى موظّفين، وأصحابِ جمعيّات ودكاكينَ تُموَّلُ من أوروبّا، أصبح كلُّ شيء يُتاجَر فيه في رام الله، أشعارُ محمود درويش، والتّراثُ الفلسطينيُّ، وغَدَتْ

رام الله مدينةَ مطاعمَ، وسائحاتٍ أجنبيّاتٍ، ينفق كثيرٌ من الشّباب – شباب النّضال والمقاومة – وقتهم معهنّ، ويتحوّل مناضلو الأمس إلى مديري شركات ومطاعمَ، فرام الله قدْ تغيّرتْ، وتغيّر السّلوك الاجتماعيّ لناسِها؛ لمجرّد وجود الأجانب، الّذين يرمزون إلى تغريب المدينة. (143)

6- في الحقيقة، جاءت هذه الرّواية لتكشف – في نظر الرّوائيّ – عن صورة دولة أوسلو وعاصمتها السّياسية، الخاضعة لكلّ تأثير خارجيّ، والمعتمدة بكل مقوماتها على الخارج ومِنَحِهم، فقد أظهر عبّاد يحيى الجانب القبيح لرام الله، وفي كلّ ما سبق اتّهامٌ من عبّاد للسّلطة بالانحدار برام الله إلى هذا المستوى، وليس بمستغرَبٍ على مثل عبّاد ذلك؛ فهو ينطلق من أيديولوجيّة إسلاميّة، فهو ينتقد السّلطة، وأوسلو، والانفتاح الّذي سبّبتْه السّلطة وتواطؤُها، كما يرى، لكنّه لا يتورّع أن ينغمس في هذا الانفتاح، وإلّا، فما المبرّر لحديثه مع صديقة أجنبيّة عنه في أمور جنسيّة بحتةٍ؟

7- لئنْ كان كلا الرّوائيّينِ قد نسبَ ما تعرّضت له رام الله من تحوّلات إلى اتّفاقيّة أوسلو، فقد اختلفا في طريقة طرح هذا الاختلاف وسببِه المباشر فيه، فالبرغوثيّ أرجع ما في رام الله من سلبيّات، في معظمها، إلى الاحتلال، أمّا عبّاد، فقد جعل هذه التّحوّلات السّلبيّة ضمن خُطّة متّفقٍ عليها بين السّلطة وإسرائيلَ، متّهمًا إيّاها، أي: السّلطةَ، بالخيانةِ لشعبها.

8- وقد تبيّن عن طريق عرض التحوّلات الّتي طرأت على مدينة رام الله، وعن طريق مريدٍ وعبّادٍ، أنّ الرّواية عند كليهما لم تكن قصّة متخيّلةً للمدينة، بل جاءت كلتا الرّوايتينِ لتصوير الواقع المَعيش، وللتّعبير عن تجاربَ تهمُّ الواقع العربيَّ الفلسطينيّ، فاندرجت هاتان الرّوايتان ضمن الرأي الّذي ذهب إلى أنّ الرّواية تشيرُ

إلى أنَّ الرّوائيّين لهم حكاياتُهم، وأنَّ عليهم أن يقولوها، ولئن كانت الرواية في الأصل تُستمدُّ من الواقع، فلقد كتب كثيرون عن قضايا في مجتمعاتهم، لم يجدوا لها حلًّا إلا بطرحها على شكل رواية؛ أملًا أنْ تثير جدلًا حول القضيّة الأصيلة، وتوجّه الأنظار إليها.

المصادر والمراجع

إبراهيم، صالح: **الفضاء ولغة السرد في روايات عبد الرحمن منيف**، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، 2003.

أحمد، مرشد: **البنية والدّلالة في روايات إبراهيم نصر الله**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، دار الفارس، 2005.

إدلبي بهيجة مصري، والديك، عامر: **السّيرة الذاتيّة في الخطاب الروائيّ العربيّ**، مؤسّسة الورّاق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2011.

برادة، محمد: **فضاءات روائية**، وزارة الثقافة، الرباط، ط1، 2003.

البرغوثيّ، مريد: **رأيت رام الله**، تقديم: إدوارد سعيد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط4، 2011.

الحجري، إبراهيم: **رام الله الشقراء: مخططات تحطيم الهوية الفلسطينية**، مقال إلكتروني، https://www.7iber.com/2013/08/review-blond-ramallah.

حسن، رزاق إبراهيم: **المدينة في القصة العراقية المعاصرة**، دار الحرية للطباعة، بغداد، العراق، 1984.

حطيني، يوسف: **مكونات السرد في الرواية الفلسطينية**، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1999.

حمودة، حسين: **الرّواية والمدينة (نماذج من كتّاب الستينات في مصر)**، الهيئة العامة لقصور الثقافية، الأمل للطباعة والنشر، 2000.

_ الخبو، محمد: **مدخل إلى الخطاب الإحاليّ في الرّواية**، مكتبة علاء الدّين، صفاقس، تونس، ط 1، 2006.

الخواجة، ميساء: **المدينة وتحوّلات الحرب**، مجلة جامعة الملك عبد العزيز، الآداب والعلوم الإنسانية، المجلد 24، 1437 هـ، 2016 م.

رماني، إبراهيم: **المدينة في الشعر العربي**، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 2001 .

سعيد، إدوارد: **المثقّف والسلطة**، ترجمة: محمد عناني، القاهرة، رؤية للنشر والتوزيع، ط1، 2006.

سيدة أكرم، رخشنده نيا: **جدليّة الأنا والآخر في رواية (رأيت رام الله) لمريد البرغوثي**، جامعة بغداد، كلية الآداب، العدد 126، أيلول، 2018، 1439 هـ.

شبيل، عبد العزيز: **الفنّ الرّوائيّ عند غادة السّمّان**، دار المعارف، ط1، 1987.

شوقي، عبد المنعم: **مجتمع المدينة**، دار النهضة العربية للنشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، ط7، 1981.

صالح، صلاح: **قضايا المكان الرّوائيّ في الأدب المعاصر**، دار شرقيّات، القاهرة، ط1، 1997.

الصفدي، عالية أنور: **شعرية الأمكنة في روايات يحيى يخلف**، المعتزّ للنّشر والتّوزيع، ط1، الأردن، 2008.

عبد الحميد، شاكر: **الغرابة: المفهوم وتجلياته في الأدب**، المجلس الوطنيّ للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط1، 2012.

-عمر ،محمد :مقال ترويض النّمر، https://www.aljazeera.net/news/cultureandart/2014/7/10

العواودة، زين العابدين محمود محمد: **البنية الدلالية لخطاب السيرة الروائية الفلسطينية المنجز بعد أوسلو: سردية رأيت رام الله، ولدت هناك ولدت هنا للأديب مريد البرغوثي نموذجًا**، مجلة الجامعة الإسلامية للبحوث الإنسانية، المجلد العشرون، العدد الأول، يناير، 2012.

العيد، يمنى: **الرّواية العربيّة: المتخيّل وبنيته الفنيّة**، دار الفارابي، بيروت، 2011.

غيث، محمد عاطف: **علم الاجتماع الحضري**، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.

القرطاجني، حازم: **منهاج البلغاء وسراج الأدباء**، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار المغرب العربي، ط2، بيروت، 1981.

نجمي، حسن: **شعرية الفضاء، المتخيل والهوية في الرواية العربية**، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، 2000.

هلسا، غالب: **المكان في الرّواية العربية**، دار ابن هانئ، دمشق، 1989.

هيبي، فيّاض: **تحوّلات المدينة في الرّواية الفلسطينية**، مقال في الإنترنت، https://diffah.alaraby.co.uk/diffah/opinions.

يحيى، عباد: **رام الله الشقراء**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 2013.

رام الله الشّقراء: النّصّ في سياقه التاريخيّ كما يكتب عادل الأسطة، مقال إلكتروني، http://www.noqta.info/page-49991-ar.html.

الحواشي

([1]) الصفدي، عالية أنور: شعرية الأمكنة في روايات يحيى يخلف، المعتزّ للنّشر والتّوزيع، ط1، الأردن، 2008، ص 23.

([2]) شبيل، عبد العزيز: الفن الرّوائيّ عند غادة السّمّان، دار المعارف، ط1، 1987، ص 47.

([3]) ينظر: برادة، محمد: فضاءات روائية، وزارة الثقافة، الرباط، ط1، 2003، ص 23.

([4]) ينظر: نجمي، حسن: شعرية الفضاء، المتخيل والهوية في الرواية العربية، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، 2000، ص 48.

[5]([5]) ينظر: هلسا، غالب، المكان في الرّواية العربية، دار ابن هانئ، دمشق، 1989، ص 9.

([6]) صالح، صلاح: قضايا المكان الرّوائيّ في الأدب المعاصر، دار شرقيّات، القاهرة، ط1، 1997، ص 12.

([7]) ينظر: أحمد، مرشد: البنية والدّلالة في روايات إبراهيم نصر الله، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، دار الفارس، 2005، ص 128.

([8]) إبراهيم، صالح: الفضاء ولغة السرد في روايات عبد الرحمن منيف، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، 2003، ص 13.

([9])حسن، رزاق إبراهيم: المدينة في القصة العراقية المعاصرة، دار الحرية للطباعة، بغداد، العراق، 1984، ص 17.

([10]) ينظر: شوقي، عبد المنعم: مجتمع المدينة الاجتماع الحضري، دار النهضة العربية للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط7، 1981، ص 27.

([11]) ينظر: أحمد، مرشد: البنية والدّلالة في روايات إبراهيم نصر الله، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، دار الفارس، 2005، ص 128.

([12]) إدلبي، بهيجة مصري، والديك، عامر: السّيرة الذاتيّة في الخطاب الروائيّ العربيّ، مؤسّسة الورّاق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2011، ص 105.

([13]) ينظر: غيث، محمد عاطف: علم الاجتماع الحضري، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ص 129.

([14]) ينظر: رماني، إبراهيم: المدينة في الشعر العربي، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 2001، ص 65.

([15]) حمودة، حسين: الرّواية والمدينة (نماذج من كتّاب الستينات في مصر)، الهيئة العامة لقصور الثقافية، الأمل للطباعة والنشر، 2000، ص 25.

([16]) ينظر: حسن، رزاق: المدينة في القصة العراقية، ص 15.

([17]) ينظر: الخواجة، ميساء: المدينة وتحولات الحرب، مجلة جامعة الملك عبد العزيز، الآداب والعلوم الإنسانية، المجلد 24، 1437 هـ، 2016 م، ص 134.

([18]) ينظر: الخبو، محمد: مدخل إلى الخطاب الإحاليّ في الرّواية، مكتبة علاء الدّين، صفاقس، تونس، ط1، 2006، ص 38-39.

([19]) ينظر: العيد، يمنى: الرّواية العربيّة: المتخيّل وبنيته الفنيّة، دار الفارابي، بيروت، 2011، ص 7.

([20]) البرغوثيّ، مريد: رأيت رام الله، تقديم: إدوارد سعيد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط4، 2011، ص 48.

([21]) رأيت رام الله، ص 48.

([22]) رأيت رام الله، ص 48.

([23]) رأيت رام الله، ص 48.

([24]) ينظر: البرغوثي: رأيت رام الله، ص 141.

([25]) رأيت رام الله، ص 50.

([26]) رأيت رام الله، ص 116.

([27]) رأيت رام الله، ص 49-50.

([28]) هيبي، فيّاض: تحوّلات المدينة في الرّواية الفلسطينية، مقال في الإنترنت، https://diffah.alaraby.co.uk/diffah/opinions.

([29]) رأيت رام الله، ص 58.

([30]) رأيت رام الله، ص 143.

([31]) رأيت رام الله، ص 96-97.

([32]) رأيت رام الله، ص 73.

([33]) رأيت رام الله، ص 169.

([34]) رأيت رام الله، ص 143.

([35]) رأيت رام الله، ص 46.

([36]) رأيت رام الله، ص 49.

([37]) رأيت رام الله، ص 141.

([38]) رأيت رام الله، ص 47.

([39]) ينظر: حطيني، يوسف: مكونات السرد في الرواية الفلسطينية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1999، ص 92.

([40]) رأيت رام الله، ص 79.

([41]) رأيت رام الله، ص 76.

([42]) رأيت رام الله، ص 76-77.

([43]) رأيت رام الله، ص 177.

([44]) رأيت رام الله، ص 43.

([45]) رأيت رام الله، ص 60.

([46]) رأيت رام الله، ص 61.

([47]) عبد الحميد، شاكر: الغرابة: المفهوم وتجلياته في الأدب، المجلس الوطنيّ للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط1، 2012، ص 139.

([48]) رأيت رام الله، ص 140

([49]) رأيت رام الله، ص 140.

([50]) رأيت رام الله، ص 140.

([51]) رأيت رام الله، ص 47.

([52]) رأيت رام الله، ص 53.

([53]) رأيت رام الله، ص 72.

([54]) رأيت رام الله، ص 177.

([55]) رأيت رام الله، ص 40.

([56]) رأيت رام الله، ص 30.

([57]) رأيت رام الله، ص 30.

([58]) رأيت رام الله، ص 43.

([59]) رأيت رام الله، ص 103.

([60]) رأيت رام الله، ص 48.

([61]) رأيت رام الله، ص 59.

([62]) رأيت رام الله، ص 59.

([63]) رأيت رام الله، ص 170.

([64]) رأيت رام الله، ص 59.

([65]) رأيت رام الله، ص 76.

([66]) رأيت رام الله، ص 83.

([67]) رأيت رام الله، ص 103.

([68]) رأيت رام الله، ص 76.

([69]) رأيت رام الله، ص 144.

([70]) رأيت رام الله، ص 37.

([71]) رأيت رام الله، ص 169.

([72]) ينظر: العواودة، زين العابدين محمود محمد: البنية الدلالية لخطاب السيرة الروائية الفلسطينية المنجز بعد أوسلو: سردية رأيت رام الله، ولدت هناك ولدت هنا للأديب مريد البرغوثي نموذجًا، مجلة الجامعة الإسلامية للبحوث الإنسانية، المجلد العشرون، العدد الأول، يناير، 2012، ص 144.

([73]) رأيت رام الله، ص 144.

([74]) رأيت رام الله، ص 174.

([75]) ينظر: سعيد، إدوارد: المثقّف والسلطة، ترجمة: محمد عناني، القاهرة، رؤية للنشر والتوزيع، ط1، 2006، ص 43.

([76]) رأيت رام الله، ص 148-149.
([77]) رأيت رام الله، ص 149.
([78]) رأيت رام الله، ص 131.
([79]) رأيت رام الله، ص 131-132.
([80]) رأيت رام الله، ص 132.
([81]) رأيت رام الله، ص 143.
([82]) رأيت رام الله، ص 176.
([83]) رأيت رام الله، ص 176.
([84]) ينظر: القرطاجني، حازم: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار المغرب العربي، ط2، بيروت، 1981، ص 21.
([85]) رأيت رام الله، ص 41.
([86]) رأيت رام الله، ص 137.
([87]) رأيت رام الله، ص 149.
([88]) رأيت رام الله، ص 62.
([89]) رأيت رام الله، ص 104.
([90]) رأيت رام الله، ص 67.
([91]) رأيت رام الله، ص 79-80.
([92]) رأيت رام الله، ص 73.
([93]) رأيت رام الله، ص
([94]) رأيت رام الله، ص 48.
([95]) رأيت رام الله، ص 51.
([96]) رأيت رام الله، ص 59.
([97]) رأيت رام الله، ص 149.
([98]) رأيت رام الله، ص 100.
([99]) رأيت رام الله، ص 103.

([100]) رأيت رام الله، ص 158.

([101]) يحيى، عباد: رام الله الشقراء، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 2013، ص 43.

([102]) رام الله الشقراء، ص 52.

([103]) رام الله الشقراء، ص 55، والصّواب: ستّة شهور، ولكنّ الكاتب سرد الكلام بالعاميّة.

([104]) رام الله الشقراء، ص 65.

([105]) رام الله الشقراء، ص 91.

([106]) رام الله الشقراء، ص 14.

([107]) رام الله الشقراء، ص 15.

([108]) رام الله الشقراء، ص 11.

([109]) رام الله الشقراء، ص 20.

([110]) رام الله الشقراء، ص 89.

([111]) رام الله الشقراء، ص 23-24.

([112]) رام الله الشقراء، ص 24.

([113]) رام الله الشقراء، ص 32.

([114]) رام الله الشقراء، ص 70.

([115]) رام الله الشقراء، ص 12.

([116]) رام الله الشقراء، ص 22.

([117]) رام الله الشقراء، ص 50.

([118]) رام الله الشقراء، ص 52.

([119]) رام الله الشقراء، ص 61.

([120]) رام الله الشقراء، ص 18.

([121]) رام الله الشقراء، ص 61-62.

([122]) رام الله الشقراء، ص 17.

([123]) رام الله الشقراء، ص 22.

([124]) رام الله الشقراء، ص 33.

([125]) رام الله الشقراء، ص 57.

([126]) رام الله الشقراء، ص 58.

([127]) رام الله الشقراء، ص 93.

([128]) رام الله الشقراء، ص 127.

([129]) ينظر: عمر، محمد: مقال ترويض النّمر، https://www.7iber.com/2013/08/review-blond-ramallah.

([130]) رام الله الشقراء، ص 28.

([131]) رام الله الشقراء، ص 29.

([132]) رام الله الشقراء، ص 29.

([133]) رام الله الشقراء، ص 41.

([134]) رام الله الشقراء، ص 42.

([135]) رام الله الشقراء، ص 46.

([136]) رام الله الشقراء، ص 103.

([137]) هكذا وردت في الرّواية، والصواب: ثلاثة الملايين.

([138]) الحجري، إبراهيم: رام الله الشقراء: مخططات تحطيم الهوية الفلسطينية، مقال إلكتروني، https://www.aljazeera.net/news/cultureandart/2014/7/10

([139]) رام الله الشقراء، ص 97.

([140]) رام الله الشقراء، ص 80.

([141]) ينظر: رام الله الشقراء، ص 136.

([142]) ينظر: رام الله الشقراء، ص 58-59.

([143]) ينظر: رام الله الشّقراء: النّصّ في سياقه التاريخيّ كما يكتب عادل الأسطة، مقال إلكتروني، http://www.noqta.info/page-49991-ar.html.